

أرسطو
معلم الإسكندر الأكبر

سلسلة
أشهر فلاسفة العالم

أرسطو

معلم الإسكندر الأكبر

يوسف أبو الحجاج الأقسري



تقديم

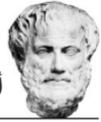
الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

وبعد..

ها هو إصدار متميز موجز ومختصر عن رائد من رواد الفلسفة في العالم إنه أرسطو الذي ولد عام 384 ق.م في مدينة «ستاغيرا» في شمال اليونان وكان والده طبيباً مقرباً من البلاط المقدوني، وقد حافظ أرسطو وتلاميذه من بعده على هذا التقارب، وقد كان لوالده تأثير كبير عليه لدخوله في مجال التشريع ودراسة الكائنات الحية والتي منحته القدرة على دقة الملاحظة والتحليل.

* في عام 367 ق.م رحل أرسطو إلى أثينا لالتحاق بمعهد «أفلاطون» كطالب في البداية وكمدرس فيما بعد، وقد كان أفلاطون قد جمع حوله مجموعة من الرجال المتفوقين في مختلف المجالات العلمية من طب وبيولوجيا، ورياضيات وفلك ولم يكن يجمع بينهم رابط عقائدي سوى رغبتهم في إثراء وتنظيم المعارف الإنسانية وإقامتها على قواعد نظرية راسخة ثم نشرها في مختلف الاتجاهات، وكان هذا هو التوجه المعلن لتعاليم وأعمال أرسطو..

* وكان من برامج معهد أفلاطون أن يتدرب الشباب أيضاً للقيام بالمهن السياسية وتقديم النصائح والمشورة للحكام، ولذا فقد انضم أرسطو عام 347 ق.م إلى بلاط الملك «هرمياس» ومن ثم في عام 343 ق.م دخل أرسطو في خدمة الملك فيليب الثاني إمبراطور مقدونيا حيث أصبح معلماً ومؤدباً لابنه الإسكندر الكبير،



وبعد سبع سنوات عاد مرة أخرى إلى أثينا ليؤسس مدرسته الخاصة «الليسيوم، أو المشائية» وسميت كذلك نسبة للمرات أو أماكن المشاة المسكونة التي كان الطلاب وأساتذتهم يتحاورون فيها وهم يمشون، وقد خالفت «المشائين» تقاليد أكاديمية «أفلاطون» بتوسيع المجالات العلمية التي كانت تناقشها وأعطت أهمية كبرى لتدريس الطبيعيات، وبعد وفاة الإسكندر الأكبر بدأ الشعور بالكرهية يظهر ضد المقدونيين في أثينا وقد أثر ذلك على نفسية «أرسطو» الذي كان في الموالين للمقدونيين ما جعل أرسطو يتقاعد ولم يمهله القدر طويلاً حيث توفي بعد أقل من عام من وفاة الإسكندر الأكبر وكانت وفاته في عام 322 ق.م.

وعلى الرغم من غزارة إنتاج أرسطو الفكري المتمثل في محاضراته وحواراته الكثيرة إلا أنه لم يبق منها إلا النذر اليسير، فقد ضاع معظمها ولم يبق سوى بعض الأعمال التي كانت تدرس في مدرسته والتي تم جمعها تحت اسم «المجموعة الأرسطوطالية» بالإضافة إلى نسخة ممزقة من «الدستور الأثيني» الذي وضعه وعدد من الرسائل والأشعار من ضمنها مرثية في أفلاطون.

ومع هذا الفيلسوف الرائد العظيم تدور سطور هذا الإصدار الخفيف المختصر عن حياة وأفكار وفلسفة «أرسطو» وأتمنى أن يكون هذا العمل إضافة جديدة للمكتبة العربية.

والله الموفق المستعان

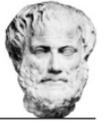
المؤلف: يوسف أبو الحجاج الأقصري



أرسطو

الفصل الأول

أرسطو وأشهر أقواله





نبذة عن أرسطو

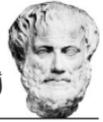
* أرسطو أو أرسطاطليس أو أرسطاطاليس أسماء لفيلسوف يوناني يعتبر أهم مؤسسي الفلسفة الغربية.

* هو تلميذ أفلاطون، ومعلم الإسكندر الأكبر وواحد من عظماء المفكرين، تغطي كتاباته مجالات عدة منها: - الفيزياء، والشعر، والمسرح، والموسيقى، والمنطق، والبلاغة، واللغويات، والسياسة والأخلاقيات، وعلم الأحياء، وعلم الحيوان.

* ولد في مدينة «أسطاغيرا» مقدونيا عام 384 ق.م وهي تقع على بعد 55 كيلو مترًا شرقي مدينة سالونيك، وكان والده «نيكوماخوسي» طبيباً لدى الملك «أمينتاس الثالث» المقدوني جد «الإسكندر الأكبر».

* ترك «أرسطو» مقدونيا إلى أثينا وهو في السابعة عشرة من عمره لينال تعليمه والتحق فيها بأكاديمية أفلاطون، وقد استمر في الأكاديمية نحوًا من عشرين عاماً قبل أن يغادر أثينا في 348 ق.م.

* بعد وفاة أفلاطون عام 347 ق.م ارتحل أرسطو إلى أترنوس إحدى المدن اليونانية في آسيا الصغرى، حيث تزوج شقيقة حاكمها «هومياس»، وما



هي إلا ثلاث سنوات وبعد إقامة قصيرة في جزيرة «لسبوس» تلقى أرسطو دعوة من الملك «فيليبوس» المقدوني ليكون معلم ابنه الذي أصبح فيما بعد الإسكندر الأكبر، وقد لازم أرسطو الإسكندر صديقا ومعلما ومستشارا حتى قام الإسكندر بحملته الحربية الآسيوية عام 334 ق.م.

* ومما يروي أن الإسكندر كان يرسل من البلدان التي كان يمر بها نماذج من نباتاتها وحيواناتها إلى أرسطو مساهمة منه في زيادة اطلاعه، وتسهيل أبحاثه ودراساته ومن هنا استطاع أرسطو أن يؤسس أول حديقة حيوان في العالم...

* في أثينا عام 332 ق.م افتتح أرسطو مدرسة «لوقيون» وقد عُرف أتباعه باسم «المشائين» لأن أرسطو كان من عاداته أن يمشي بين تلاميذه وهو يلقي عليهم دروسه.

* ظل أرسطو يدير مدرسته هذه لمدة 13 عاماً وعلى الرغم من عداوة الأثينيين لمقدونيا التي استعبدتهم اجتذبت مدرسة أرسطو الكثير من التلاميذ وأسست مركزاً للأبحاث البيولوجية والتاريخية والشئون الحكومية والإدارية، ولم يكن ثمة موضوع يناقش في أيام أرسطو لم يتطرق إليه في مدرسته وفي كتبه، يجلوه، ويوضحه.

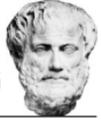
* من أشهر مؤلفات أرسطو «أورغانون»، «السياسة»، فن الشعر، المنطق، تاريخ الحيوانات، علم الفلك.

* توفي الإسكندر عام 323 ق.م ووقعت حكومة أثينا بين أيدي أعداء المقدونيين وكان أرسطو من أنصار المقدونيين فدبر له أعداؤه تهمة الإلحاد،



أرسطو

فخشي الاضطهاد والمصير الذي آل إليه «سقراط» من قبله فهرب إلى مدينة «خلسيس» حيث أصيب بمرض بعد ذلك بسنة واحدة ومات في سن الثالثة والستين عام 322 ق.م.



أشهر أقوال أرسطو

* علمتني الفلسفة أن أفعل دون أوامر ما يفعله الآخرون خوفاً من القانون.

* مَنْ يهزم رغباته أشجع ممن يهزم أعداءه، لأن أصعب انتصار هو الانتصار على الذات.

* الأمل حلم من أحلام اليقظة.

* الحاكم الصالح لا بد أنه كان من قبل محكوماً.

* الفقر والد الثورة والجريمة.



* أن تدرك يعني أن تعاني.

* السعادة مرهونة بنا نحن.

* علامة العقل المتعلم هو قدرته على تداول الفكرة دون أن يتقبلها.

* ينبغي في العمل اتباع العقل الحكيم.

* المرء أصل كل ما يفعل.

* مَنْ لم يكن حكيماً لم يزل سقيماً.

* الأفعال الفاضلة تسر مَنْ يحب الفضيلة..

* أولئك الذين هم في ثورة الغضب يفقدون كل سلطان على أنفسهم.



* شر الناس هو ذلك الذي بفسوقه يضر نفسه والناس.

* مَنْ لم ينفعه العلم لم يأمن ضرر الجهل.

* إن المريض لن يستطيع أن يلبس ثوب العافية بمجرد رغبته بذلك.

* للحكم على شيء خاص لا بد أن يكون الإنسان على علم خاص بذلك الشيء.

* الدستور هو ترتيب مناصب الحكم في دولة ما.

* صديق الكل ليس صديقاً لأحد.

* لا يجب الخلط ما بين المدينة العظيمة والمدينة العامرة بالسكان.

* الصديق الحقيقي روح واحدة في جسدين.



* الشيء الكامل هو ما له بداية ووسط ونهاية.

* كل الأفعال الإنسانية تنبع من واحدة أو أكثر من هذه المسببات: -
المصادقة، الطبيعة، الإكراه، العادة، المنطق، العاطفة، الرغبة.

* البشر بطبيعتهم يريدون المعرفة.

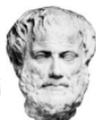
* كل الفضائل تتلخص في التعامل بعدالة.

* الأشرار يملأهم الندم.

* التغيير محبوب في كل شيء.

* الشجاعة أهم الصفات الإنسانية لأنها الصفة التي تضمن باقي الصفات.

* الديمقراطية هي حكم المحتاجين وليس أصحاب الأملاك.



* الكرامة ليست امتلاك المفاخر بل استحقاقها.

* التعليم زينة في الرخاء وملاذ في الشدة.

* الخوف ألم نابع من توقع الشر.

* الحياة زينة للشباب.

* الحب الذي ينتهي ليس حبا حقيقياً.

* سر النجاح في عملك هو أن تعرف بعض الأشياء التي لا يعرف عنها

أحد غيرك.

* لو لم توجد النساء لما كان للرجال معنى.

* من الممكن الفشل بطرق كثيرة ولكن النجاح ممكن بطريقة واحدة.



* ينبغي في العمل اتباع العقل الحكيم.

* جذور التربية مُرة، ولكن ثمارها حلوة.

* كيف تحكم على إنسان، أسأله كم كتاباً يقرأ وماذا يقرأ؟

* غاية الحرب هي السلام.

* الجاهل يؤكد، والعالم يشك، والعاقل يتروى.

* الاستمتاع بالعمل يضيف عليه المثالية.

* سئل أرسطو مَنْ يصنع الطغاة؟، فرد قائلاً: - ضعف المظلومين.



* الرجل المثالي يشعر بالمتعة في إسداء المعروف للآخرين.

* الدولة الصالحة هي التي يكون فيها الفرد هو السيد الأعلى، ويكون لها دستور يسير على مبادئه الحاكم.

* أفلاطون صديق، والحق صديق، ولكن الحق أصدق منه.

* إننا لا نصطاد الثعلب بالفخ نفسه مرتين.

* يسهل خداع الشباب لأنهم يستعجلون الأمل.

* الباحث بأقصى جهده عن الحقيقة هو الذي ينفرد بأكمل حياة ممكنة.

* المثل القائل لا تعط السكين لطفل يعني ألا تضع القوة بين أيدي الأوغاد.



أرسطو

* إن الحياة الخالية من التأمل والنظر هي حياة لا تليق بالإنسان.

* إن البشر جميعا يسعون إلى المعرفة بحكم طبيعتهم.





أرسطو

الفصل الثاني

أرسطو والدعوة للفلسفة والتفلسف



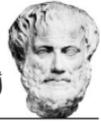


أرسطو والكتاب المفقود

«بروتريبتيقوس» الحث على الفلسفة

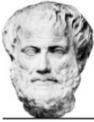
إنه الجديد الذي نقدمه من خلال هذا الإصدار كتاب مفقود لأرسطو، لقد ضاع ما ضاع من المحاورات التي كتبها أرسطو في شبابه ولم يبق منها غير أسماؤها وبعض شذرات متفرقة منها، وهذا الكتاب صحيح أن بعض المؤلفين القدامى قد عرفوا عنوانه الأصلي «بروتريبتيقوس» وهو يعني الشيء المقنع أو المعزى والفعل منه «بروتريبو» معناه يحث على شيء ويحض عليه بالحث وقد استخدمه أفلاطون في الحث على الفلسفة كما استعاره من أرسطو أكثر من مؤلف قديم نقل عنه وتأثر به خصوصاً يامبليخوس، إن عدداً منهم وضع كتباً أخرى تحمل نفس العنوان الذي يفيد الحث على التفلسف وبيان ضرورته للحياة السعيدة، وصحيح أيضاً أنهم اقتبسوا منه عبارة ذاعت شهرتها في كتب الفلسفة حتى يومنا الحاضر ألا وهي العبارة التي تقول: «إما أن التفلسف ضروري، ولا بد عندئذ من التفلسف وإما أنه غير ضروري، ولا بد أيضاً من التفلسف لإثبات عدم ضرورته وفي الحالتين ينبغي التفلسف»..

ولكن هذا الكتاب ظل أكثر من ثلاثة وعشرين قرناً في عداد المفقودات



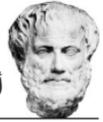
وبقي الأمر على هذه الحال منذ النصف الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين نشر عالم ألماني كتاباً عن محاورات أرسطو طرح فيه السؤال عن مضمون الكتاب الضائع وهدفه، وانطلق البحث من هذا السؤال الحائر ودارت عجلته مائة سنة كاملة حتى أعيد بناء الكتاب المفقود هذا..

* ولو صرفنا النظر عن الفهارس القديمة التي أحصت مؤلفات المعلم «أرسطو» لوجدنا نصين اثنين من العصور القديمة يذكر فيهما «البروتربيتيقوس» الضائع ذكراً صريحاً، فالإسكندر الأفروديسي «حوالي سنة مائتي بعد الميلاد» وهو أكبر شراح أرسطو يقول: «إن أرسطو يطرح فيه السؤال عن ضرورة الفيلسوف لبلوغ السعادة والحياة الأخلاقية الطيبة أو عدم ضرورته» ويؤكد الإسكندر أنه قدم الدليل على ضرورته عندما بين أن مَنْ يحتاج على الفلسفة إنما يثبت لهذه الحجة نفسه إنه يتفلسف، ولقد كان هم «أرسطو» أن يدافع عن صحة العبارة التي ذكرها أفلاطون في محاوره «الدفاع» على لسان سقراط وهي «إن الحياة الخالية من البحث والتأمل حياة لا تليق بالإنسان» وأن عليه أن يؤديها بحجج أخرى يستمدّها من تجربته في الحياة ورؤيته لها» أما النص الآخر الذي فيه ذكر الكتاب فيرجع إلى «زينون» مؤسس الرواقية من حوالي عام «336 - 264 ق.م» والذي يروى عن معلمه «كراتيس» أو «إقراطيس» تلميذ ديو جينيس» أنه كان يجلس يوماً في دكان صديقه الإسكافي «فليسكوس»



وأخذ «كراتيس» يقرأ عليه من كتاب أرسطو «البروتريتيقوس» الذي أهداه لثيميسون ملك قبرص، وقال له فيه «ما من أحد مثلك أهلتك الظروف ليهب حياته للفلسفة فأنت ترى ويمكنك أن تنفق المال اللازم لتحصيلها وأنت مرموق المكانة» وكان الإسكافي يستمع لما يقرأه صديقه عليه دون أن يكف عن مواصلة عمله.. فقال له «كراتيس»: اعتقد يا عزيزي «فليسكوس» أنني سأهديك كتابا بنفس العنوان فإنك في رأيي أهل للحياة الفلسفية أكثر من ذلك الذي أهداه أرسطو كتابه».

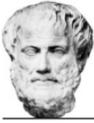
وسواء أكانت حكاية الفيلسوف هذا صادقة أم من نسج خياله فإن مغزاها لا يخفي على القارئ، ولقد أراد هذا الشحاذ البائس الذي عرفت العصور القديمة جولاته في القرى ومواعظه للفقراء بالزهد والعودة إلى حياة الطبيعة، أراد هذا أن يقول إن الإسكافي المسكين أفدر على الحياة الفلسفية من الملك صاحب السلطة والجاه والثراء، والأهم من ذلك أنه لم يكن ليروي الحكاية ولم يكن «زينون» ليردها بعده لو لم يكن «بروتريتيقوس» أرسطو معروفا بين الناس في النصف الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد، مهما يكن الأمر فنحن لا نملك غير هذين النصين اللذين يذكر فيهما كتاب أرسطو هذا، وكلاهما لا يفيدنا بشيء عما يقوله فيه، ولقد مرت القرون وتوالت الأجيال منذ ذلك الحين إلى أن طرح العالم الألماني ج. برنيس في كتاب صدر له في برلين عام 1863م عن محاورات أرسطو مشكلة هذا الكتاب وتساءل عن هدفه



ومضمونه، وبدأت عيون الباحثين تقتفي آثار هذا الكتاب وتلمس صداه في نصوص أرسطو الباقية من كتبه الضائعة، أو في نصوص القدماء الذين أخذوا عنوان كتابه وحاولوا تقليد أسلوبه وأفكاره، وظل الأمر في أخذ ورد حتى بدء العالم الإنجليزي «بايووتر» الظلام المحيط به وأثبت أن كتابا بنفس العنوان لبامبلخيوس أحد أتباع الأفلاطونية المحدثة «270 - 330 م» يضم جزءاً كبيراً أخذ بنصه الحرفي من كتاب أرسطو وتوالت محاولات العلماء من مختلف بلاد العالم لتفسير النص وتحقيق أسلوبه ومفرداته ومحتواه والتأكد من صحة نسبته لأرسطو.

* لقد أهدى أرسطو كتابه هذا إلى أمير قبرصي مجهول هو «ثيميسون» ويبدو أنه وجه بهذا الإهداء إلى خصومه ضربة بارعة وأثبت لهم أنه قد نزل إلى ساحة الميدان الذي ظل وقفا عليهم، والهدف الحقيقي من ورائه هو رد سهام هؤلاء الخصوم وبخاصة «إيزوقراطيس» صاحب خطبة «الانتيدوزيس» الذي انتقد فيها منهج التعليم والتربية في الأكاديمية وكل الذين هاجموا المعرفة النظرية وأوحوا إلى الشباب أن الفلسفة بوصفها معرفة خالصة لا ضرورة لها ولا فائدة منها في الحياة العملية وأن السعادة تكمن في استقامة السلوك والعمل الطيب وحده.

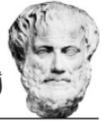
ولهذا فإن الدعوة البليغة التي يحملها كتاب أرسطو هذا إلى التفلسف دعوة موجهة في الواقع إلى الشباب الأثيني وهي حث له على حياة التأمل التي هي



وحدها الحياة الخليقة بالإنسان.

* سطر أفلاطون كتابه هذا في صورته فقرات كل فقرة تحمل رقم « B + رقم » أو « ب + رقم الفقرة » وعددها 110 فقرة أي حتى الفقرة « ب 110 » ويبدأ أرسطو دعوته في كتابه هذا بالإشارة إلى أهمية الفلسفة والتساؤل عن الفضيلة والخير ويبين أن كليهما لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق معرفة مطابقة له، فبغير هذه المعرفة يصبح امتلاك الخيرات الخارجية من ثروة وقوة وجاه خطرا يهدد الإنسان ويضره أكثر مما ينفعه، هذه المعرفة هي التي تضيء على تلك الخبرات قيمتها، وهي في الحقيقة تفوقها في القيمة لأنها لم توجد لأجلها فحسب وإنما هي قيمة في ذاتها بل هي القيمة العليا التي تجعل لكل ما عداها قيمة، وبذلك تنتهي الفرص الأولى بإثبات أن الفلسفة ممكنة.

* ثم يشتبك المعلم الأول «أرسطو» في مجادلة الخصوم الذين يشكون في هذه النتيجة ويروجون بين الشباب أن الفلسفة لا ضرورة لها في الحياة العملية ولا جدوى منها، ويرد على هذا الاعتراض القديم المتجدد أبدا بأن الفلسفة جديرة بالسعي إليها لذاتها لأنها أسمى خير يمكن أن يبلغه الإنسان، ولما كانت الغاية الطبيعية للإنسان هي ممارسة العقل فإن الحياة العقلية المكرسة للتأمل والنظر هي مهمته الحقيقية وواجبه الأول وبها يبلغ كماله ويمجد سعاده، وإذا كان البعض يتهم هذه الحياة بأنها غير نافعة فإن أرسطو بين أنه لا يصح التقليل من قيمتها بالنسبة للمشرع والسياسي وبهذا يثبت أن الفلسفة نافعة.



* ويتابع أرسطو طريقته دفاعاً عن الفلسفة فيبين أن السعادة البشرية تقوم على فاعلية العقل وأن التفلسف هو غاية الحياة الإنسانية بحكم طبيعتها نفسها وأن هذه الحياة التي يهبها صاحبها للعقل هي أسمى لذة وأنقى فرح ممكن لأن فاعلية العقل هي الخير الوحيد الذي لا يتوقف على غيره ولا يتطلب أي شروط خارجية. وهكذا تنتهي هذه الحجج إلى الفقرة الأخيرة من كتاب أرسطو وهو الفقرة «ب 110» التي ترتفع فيها موجة التحمس حتى تبلغ أسمى قمة.

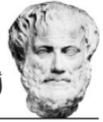


دعوة أرسطو للفلسفة

* يستهل أرسطو كتابه بالإهداء ثم يعرض أول قضية أساسية فيه وهي أن السعادة في الحياة تقوم على الحالة النفسية الطيبة كما أن امتلاك الخيرات الخارجية بغير مبادئ أخلاقية هو الشر بعينه.

* ويتحدث أرسطو عن التفلسف فيقول إنه يعني أمرين، فهو من ناحية سؤال يطرح عما إذا كان ينبغي على الإنسان أن يتفلسف، وهو في ناحية أخرى تكريس الحياة للفلسفة، ويتناول القضية الأساسية الثانية فينبى ضرورة التفلسف وقيمه في الحياة السياسية والعملية، فإذا كان أصحاب الصنائع وأرباب المهن اليدوية يكتشفون أفضل الأدوات عن طريق ملاحظة الطبيعة فيتحتّم على السياسي ورجل الدولة أن تكون لديه معايير يستمدّها من الطبيعة ومن الحقيقة، ويحكم بها على كل ما هو عادل وجميل ونافع، ولا سبيل لمن لم يهب حياته للفلسفة ولم يعرف الحقيقة أن يتوصل إلى هذه المعايير المستمدة من المعرفة النظرية بالمبادئ والعلل الأولى إلا إنها هي التي تسمح لنا بتصريف جميع أعمالنا.

* ويستطرد أرسطو في تقديم الأمثلة من الحياة العملية والمادية ليؤكد أنها



جميعاً لا تستغني عن المعرفة النظرية، فالأشياء الجسدية مجرد أدوات وعلينا أن نطلب المعرفة التي تساعدنا على حُسن استخدامها.

* وتسير الحجة التي يسوقها لإثبات هذه القضية في خطوات، فالأشياء تنشأ عن طريق الصنعة والطبيعة أو عن طريق الصدفة والحظ، وعملية النشوء تمضي في خط لا يُعكس من كون إلى نمو إلى تحقيق غاية إلى تحلل ففساد وهي عملية تعبر عن الحقيقة التي تطبع بخاتمها مذهب أرسطو كله، والطبيعة نفسها هي منبع كل خير وجمال، وتكون مظاهر إبداعها جميلة بقدر ما تسير العملية الطبيعية السابقة في طريقها السوي، كما تكون منتجات الفن والصنعة البشرية جميلة بقدر ما تحاكي الطبيعة وتكمل ما تركته ناقصاً.

* ويأتي الحديث عن سلم التطور الطبيعي الحي، فالطبيعة نفسها تقضي بأن يكون الهدف الأسمى للإنسان هو تحقيق ملكة العقل التي نسميها الحكمة أو الفطنة وبحكم الطبيعة نفسها توجد مستويات مختلفة لملكة العقل والقدرة على التفكير وهذه المستويات تؤلف سلماً من القيم يتربع على قمته الفكر الذي تتم فاعليته ويختار كذلك لذاته، والطبيعة يسودها النظام والترتيب وتراعي الحد ولا تتعداه، فهي عاقلة ولا تعمل شيئاً بالصدفة، وهي فكرة تمثل نواة الفلسفة الأرسطية وتتردد في معظم كتابات أرسطو، الذي يتساءل قائلاً: هل يستعصى على الناس بلوغ هذه الغاية؟

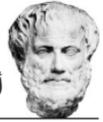
* إن أرسطو يؤكد أن الحياة الفلسفية أو الموقف الفلسفي من الحياة ليس



هدفاً مستحيلاً على الإطلاق، بل إن صعوبة تحصيل الفلسفة تقل في رأيه بكثير عن الفائدة التي تتيحها والفرح الذي نجنيه منها، وهناك في الواقع علم بالعدل والعدالة كما أن هناك علماً بالطبيعة وبكل ما هو موجود على الحقيقة، ونحن قادرون على تحصيلها سواء بسواء وهما علم الأخلاق وعلم الطبيعة بالمعنى الأرسطي، والمسألة في النهاية مسألة نظر وعلم نظري بالمبادئ والأصول.

* في نظر أرسطو هذا العلم الخالص يسبق كل علم لاحق بالأشياء والأدوات والأجسام كما تسبق العلة المعلول ويتقدم الشرط على ما يتعلق به ويعتمد عليه، فمعرفة الأولى والبسيط في الطبيعة أسهل وأبسط من المعرفة بأي شيء آخر كل ما عدا هما يتكون من هذه العناصر ويبنى منها، ثم إن كل ما هو خير فهو كذلك محدد ومنظم، والمهم بعد كل شيء هو العلم بالأسباب والعوامل والعناصر الأولية أو هو كما نقول اليوم معرفة «البنية الأساسية» بحيث تكون الأولوية دائماً للبسيط على المركب، وبحيث تسبق المبادئ ما يترتب عليها.

* وبجانب فروع العلم الأخرى يوجد علم «الفضيلة النفسية» أو كفاءتها وصلاحتها وامتلاك القدرة على التفكير وملكة العقل وفقاً لمبدأ «الغاية» هي أسماى الخيرات التي يتاح للإنسان امتلاكها، ومن ذا الذي يمكنه أن يجسد لنا المعيار الدقيق للخير، والدليل الهادي إليه غير البصير الحكيم؟ لا بد للإنسان من التمييز بين ما هو خير وما هو ضروري، وحتى لو ثبت له أن امتلاك



الحكمة ومملكة العقل والتفكير لا ينفعه في الحياة العملية بل ربما جنى عليه ذلك في معظم الأحيان، كما تؤكد لنا تجربة الحياة اليومية ذلك، فإن هذا لا يمنع أن التفكير يحمل قيمته في ذاته، وأنه جدير بالاختيار والتفضيل في كل الأحوال، ويرجع أرسطو في ختام الجزء الأول من كتابه إلى الحجة التي انطلق منها وهي «غائية الطبيعة» التي تميل بها إلى تحقيق الأقيم والأجمل والأرفع.

* ومع كل هذه المحاذير فإن النظر العقلي في أصول الأشياء ومبادئها أمر نافع للحياة العملية، فالسياسي يتحتم عليه كما سبق القول أن يلم ببعض المعالم والمعايير التي يستمدّها من الطبيعة، ومن الحقيقة، ويستعين بها في الحكم على ما هو عدل وحق وجمال، غير أن معرفة المعايير لا تكفي، فواقعية أرسطو وخبرته بالعالم والناس تجعله يفلسف للعمل كما يفلسف للنظر، ولهذا يقول صراحة إن من الواجب تحويل المعايير إلى أفعال، وتجسيد النظر في ثوب العمل، والفلسفة عنده تحصيل للحكمة وتطبيقها، والنظر في حقيقته فعل لا مجرد تأمل، إنه معرفة منتجة للتحقيق والإنجاز، صحيح أن الإنسان الذي يوقف حياته على النظر ويهبها للفلسفة لا يتلقى من الناس أجراً ولا جزاء، ولكنها تستولى عليه ويجد سعادته الكبرى في الاشتغال بها والعكوف عليها..

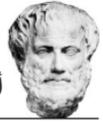
ويتساءل أرسطو في منتصف كتابه قائلاً ما هي الفلسفة؟ ولماذا كان بلوغ الحكمة هو غايتنا القصوى؟، ويبدأ في الإجابة عن التساؤل بالحديث عن العلاقة بين الجسم والنفس، ففي داخل النفس يكون الأعلى هو الجزء الحائر



على العقل وملكة التفكير وهو يعبر وحده أو في المقام الأول عن ذاتنا الحقيقية أما عن المهمة الأساسية للفكر فهي التوصل للحقيقة، ونحن نسعى في طلبها عن طريق التأمل الفلسفي وتبلغ أسمى درجة في هذا التأمل عندما نطلبها لذاتها «عملية التأمل الفلسفي».

* ثم يستطرد أرسطو إلى الكلام عن العلاقة بين العلم والرأي، فالعلم والمعرفة الدقيقة أجدر بالاختيار من الرأي الصادق، وأجدر شيء بالاختيار عند الإنسان هو التبصر الفلسفي، ولهذا يسعى الناس جميعاً في طلب المعرفة.

* ويقول أرسطو: «الحياة العقلية بجانب هذا كله حياة غنية بالفرح والعقلاء من الناس ينشدونها ويجدون في طلبها للاستمتاع بالأفراح الحقة والمسرات النبيلة» وهنا يجد المعلم الأول «أرسطو» فرصة مواتية للحديث عن فكرته الرئيسية المعروفة عن القوة والفعل، ويعرضها عرضاً مبسطاً يتقبله القارئ العادي فيميز بين المستيقظ والنائم، بين المبصر بالفعل والقادر على الإبصار، وبين العارف بالإمكان ومن يستخدم معرفته ويطبقها لينتهي من ذلك إلى القول بأن الفعل أعلى قيمة من الانفعال، وأن أسمى أفعال النفس هو التفكير، وأن أعلى درجات التفكير هو التفلسف ولهذا تكون الحياة الكاملة من نصيب أصحاب الفعل الخالص، أي من نصيب المتفلسفين، وهؤلاء هم الذين يبلغون الغاية لأنهم هم الذين يقومون بالفعل الفلسفي على أساس العلم المتناهي في الدقة لا على أي وجه كان، ويجدون في طلب الحقيقة في حياة



النظر والعمل على السواء..

* ويقول أرسطو ولما كانت هذه الفاعلية القصوى المطلقة من كل قيد هي التي توفر الفرح فمن الواضح أن المتفلسف هو الذي يحيا أكمل حياة ويتمتع بأعمق الأفراح.

* وعند هذه القمة من الدفاع البليغ عن الفلسفة تبرز قمة أخرى مضادة إذ يقول أرسطو ما معناه لكن للأسف لا يدركون مصلحتهم ويجشمون أنفسهم الجهد والمشقة في سبيل أشياء عقيمة وعاطلة من كل قيمة..

* وهكذا تكون الحياة والفاعلية على الوجه الصحيح أي الحياة العقلية وهي الشرط اللازم لبلوغ السعادة عند أرسطو، وهنا يهيب أرسطو بإجماع الناس على طلب السعادة ليؤكد من جديد أن التفلسف هو الحياة السعيدة الكاملة أو هو على الأقل أنجح الوسائل المؤدية إليها.

* ويسوق أرسطو حجة بلاغية جديدة يبدأ بها نعمة سوداء لا تقارن بالنعمة السابقة المتألقة بالبهجة والفرح، فهو يوازن بين الحياة العاقلة وبين حياة الناس الذين يقصرون همهم على مجرد الحياة وبأي ثمن، وتفاجأنا نظرة النسر الحزين الذي يطل على وادي الأشباح، فالأشياء التي تبدو في أعين الناس عظيمة ليست في حقيقتها إلا ألعاب ظلال، وتتصل خاتمة اللحن المكتئب فتقتبس من الحكماء والشعراء القدامى مؤكدة أن حياة البشر تكفير

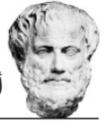


عن ذنب كبير جنيناه لتبلغ في النهاية قلب القمامة نفسها وترسم لوحة لا تنسى عن المساجين الذين تُقيد جثث الموتى بأجسادهم بحيث يواجه الوجه بالوجه ويلتصق العضو بالعضو، فهل أراد المعلم الأول «أرسطو» أن ينفردنا من حياتنا العادية المشغولة بالفهم إلى الثروة والغنى والشهرة وغيرها من الخيرات الظاهرية الخادعة لنحقق العلو فوقها على جناح التفلسف أم غلبته تجربته أو قراءاته فانساق إلى هذه الصورة الأليمة؟

مهما يكن الجواب فإن الكلمات الختامية هي أبلغ دفاع يمكن تصوره عن الفلسفة، فليس ثمة شيء إلهي في الإنسان إلا شيء واحد يستحق وحده عناء الجهد، ذلك هو العقل والتبصر الحكيم أو التفلسف وإن حياة تخلو من التأمل لهن حياة تخلو من كل قيمة ولا تليق بإنسان.. هذا ما كتبه أرسطو.. وهذه كانت فلسفته.

* ويبقى سؤال تم بحثه طويلاً وهو متى وضع أرسطو كتابه هذا؟، أهو من كتابات الشباب «المنشورة» له أم من مؤلفات الرجولة «المستورة»؟ ألدينا أي دليل على زمن التأليف أم لا نملك إلا الترجيح؟ هل كان عند تأليفه تلمذا مخلصاً لأفلاطون أم استطاع أن يتحرر من سطوته وبدأ يفكر لنفسه ويعلي بناء مذهبه؟ أكان شاباً لا يزال أم رجلاً يرحل في إهاب الرجولة الناضجة؟

* كان الرأي بين معظم الباحثين منذ ألف العالم الألماني «بيجر» كتابه المشهور عن أرسطو وتطوره الفكري عام 1923 أن أرسطو ظل طوال الفترة



التي قضاها طالبا ومعلماً في الأكاديمية الأفلاطونية والتي قاربت العشرين عاما ظل طوال هذه الفترة وحتى موت أفلاطون تلميذا مخلصاً لأستاذه، تأثر به في كل ما كتب في ذلك الحين، وشارك في نشر أفكاره وتعاليمه، غير أن كل ما كتبه في أثناء حياته في الأكاديمية قد ضاع، ولم يبق من أشعاره ومحاوراته في شبابه سوى بضع شذرات متفرقة من أهمها ما بقى من «أويديموس» و«عن الفلسفة» وهذه المحاوراة التي تحدث عنها «بروتريتيقوس».

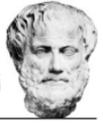
* زعم «بيجر» أن كتاب «بروتريتيقوس» كان بمثابة برنامج دراسي للأكاديمية ودعوة إلى المثل الأعلى الذي بشر به أفلاطون وحث على السير على طريقه، ومع ذلك فإن «البروتريتيقوس» يُسجل التحول الذي أصاب نفوس الجيل الجديد من شباب الأكاديمية وغير من نظرتهم إلى الحياة العقلية.

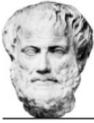
* لقد أكد «بيجر» أن أرسطو كان يقف في هذا الكتاب على أرض ميتافيزيقية مختلفة عما نجده في كتاباته المتأخرة، وأن الأفكار الأساسية فيه أفكار أفلاطونية تحمل طابع معلمه الكبير سواء في لغتها أو موضوعها وأنه لم يصبح «أرسطاليا» إلا بعد أن مات أستاذه ومر في حياته بأزمة باطنية حادة.



الفصل الثالث

ماذا قال أرسطو في كتابه «بروتريتيقوس»؟!؟





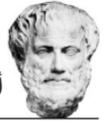
جاء هذا الكتاب على شكل فقرات مرقمة مسبوقة بحرف « أ » أو « ب » كما

يلي: -

* «ب1» إن تطلعك للمعرفة عزيزي ثيميسون وسعيك إلى الرفعة والحياة السعيدة أمور أعلمها عن طريق السماع وإني لمقتنع بأنه ما من أحد يملك أنسب مما تملك من ملكات تعينك على الإقبال على الفلسفة فأنت غني بحيث يمكنك أن تنفق على تعلمها، وأنت كذلك تحتل مكانة مرموقة ويعتقد معظم الناس أن الحياة لسعيدة تعتمد على امتلاك الخيرات الخارجية وهم لا يذهبون إلى هذا الرأي بغير مبرر فنحن نلاحظ أن بعض الناس يوفقون في جميع شئونهم ويبلغون النجاح على الرغم من حقهم ولا شك أنك صادفت في حياتك حالات أخرى حدث فيها العكس وقد يمكنك من معرفتك بالماضي أو من تجربتك الخاصة أن تتذكر عدداً من الوقائع التي كان فيها الغرور سبباً للسقوط.

* «ب2» لقد عرفت رجالاً أسرفوا في الثقة بالثروة والحظ والقوة ولهذا قضى عليهم بالانحدار إلى هاوية الشقاء وعلى قدر تفوقهم السابق في النجاح يشتد عمق إحساسهم بالإخفاق وسوء الحظ ويشعرون بالخجل من أن وضعهم الحاضر لا يحفزهم على النهوض بما يروونه واجباً مفروضاً عليهم.

ولما كنا نلمس نكد الطالع الذي يلهم هؤلاء الناس، فإن علينا أن نتحاشى مثل هذا القدر ونعلم أن السعادة في الحياة لا تقوم على امتلاك الثروة الكبيرة

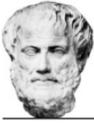


وإنما تعتمد على الحالة النفسية الطيبة.

* «ب3» وكذلك الأمر فيما يتعلق بالجسم فلن يصف إنسان أحد من الناس بأنه مبارك الحظ من الآلهة لمجرد أنه يرتدي ثيابا فخمة، بل سيخلع هذه الصفة على من وهب الصحة وتمتع بالمزاج الصحيح حتى ولو لم يكن له أدنى نصيب من الزخرف الخارجي وبالمثل لا يصف المرء نفسه سعيداً إلا إذا كانت نفسه مثقفة، ولا إنسانا يوصف بالسعادة إلا إذا كان مهذباً ولكننا نمنح هذه الصفة عمن يتحلى بمظاهر الزينة الفخمة دون أن يكون له أية قيمة في ذاته، ويصدق هذا أيضاً على الحصان، فمهما يكن من لجامه الذهبي وحلاه الثمينة فلن تضيفي عليه أي قيمة ما دام لا يصلح لشيء غير ذلك، وستفضل عليه حصانا آخر نتوسم فيه الصفات الطيبة..

* «ب3» ثم إن من عادة المنحطين من الناس إذا حصلوا على ثروة طائلة أن يقدموا قيمة هذه الثروة تقديراً يفوق تقديرهم لخيرات النفس وهذا هو أحقر شيء يمكن تصوره، ولو ظهر سيد في مظهر من هو أقل شأناً من خدمه لأصبح عرضة للسخرية والاستهزاء، وكذلك يتحتم علينا أن نحشر في زمرة التعمساء، أولئك الذين يجعلون لاكتساب الثروة أهمية تفوق العناية بطباعهم وأخلاقهم.

* «ب4» والواقع أن هذه هي الحقيقة، فالتخمة كما يقول المثل السائر تلد الغطرسة، وإذا ما اقترن النقص في التربية بالقوة والسلطة تولد عن ذلك



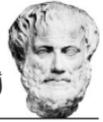
الجنون، وأولئك الذين ساءت نفوسهم لن ينفعهم الثراء ولا القوة ولا الجمال شيئاً، بل كلما توافرت هذه الأمور ازداد ضررها على صاحبها عمقاً وتنوعاً، وذلك إن لم تقترن بالتبصر والحكمة، إن المثل القائل «لا تعط السكين للطفل» يعني ألا تضع القوة في أيدي الرعاع.

* «ب5» إن التبصر الفلسفي وهذا ما سوف يوافقنا عليه الجميع هو ثمرة الجهد الجاد والبحث عن الأشياء التي تؤهلنا الفلسفة للبحث عنها، لهذا يتحتم علينا دون لجوء إلى مباحكات لفظية أن نتفلسف..

* «ب6» إن كلمته التفلسف تدل من ناحية على السؤال عما إذا كان من واجب الإنسان أن يتفلسف، كما تدل من ناحية أخرى على أن نهب أنفسنا للفلسفة.

* «ب7» كما كنا نتوجه بحدِيثنا إلى أناس من البشر لا إلى أولئك الذين لهم حياة ذات طبيعة إلهية، فلا بد أن نضيف إلى تلك التنبيهات السابقة تنبيهات أخرى نافعة في الحياة الاجتماعية والعلمية..

* «ب8» وفي هذا الصدد نقول إن ما يقع تحت تصرفنا لتيسير شؤون الحياة كالجسد وما يخدم الجسد إنما يقع تحت تصرفنا كنوع في الأداة واستخدام هذه الأدوات مقرون بالخطر، فهي تؤدي إلى عكس نتيجتها على يد أولئك الذين لا يحسنون استعمالها، ولهذا يجب علينا أن نسعى إلى تحصيل هذه المعرفة وتطبيقها



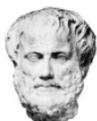
بطريقة ملائمة.

* «ب9» يجب علينا أن نصبح فلاسفة إذا أردنا أن نصر ف شؤون الدولة بصورة صحيحة ونشكل حياتنا الخاصة بطريقة نافعة بيد أن المعرفة على أنواع مختلفة، فهناك المعرفة التي تنتج خيرات الحياة، وهناك المعرفة التي تستخدمها، وثمة أنواع وتقسيم آخر، فهناك أنواع المعرفة التي تخدم وتطبع، وهناك الأنواع التي تأمر، والأنواع الأخيرة أعلى درجة، وفيها يكمن الخير بمعناه الحقيقي ولما كان هذا النوع الوحيد من المعرفة هو الذي يتوصل للحكم الصحيح ويستخدم العقل ويضع الخير في مجموعة نصب عينيه وتغني به الفلسفة وهو الذي يستطيع الانتفاع بسائر أنواع المعرفة وتوجيهها ووفق قوانين الطبيعة، وهذا دليل آخر على ضرورة التفلسف.

* «10» ذلك أن الفلسفة وحدها تنطوي على الحكم الصحيح والتبصر المعصوم من الخطأ والذي يملك القدرة على تحديد ما ينبغي علينا أن نأتي من الأفعال وأن ندع.

* «11» دعنا الآن نتمعمق في سؤالنا ونتأمله من وجهات النظر الغائبة لكي نصل إلى نفس التنبيه السابق.

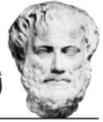
من الأشياء التي تنشأ وتكون ما يدين وجود بعضه للتدبير العقلي والمقدرة البشرية على الصنعة كما هو الحال في البيت والسفينة اللذان يشترطان المقدرة



والتدبير، في حين أن بعضها الآخر لا ينشأ عن طريق المقدرة البشرية على الصنعة بل بواسطة الطبيعة.

* «ب12» إن الطبيعة هي الأصل في الحيوانات والنباتات وكل نشوء من هذا النوع يتم وفقا للطبيعة، ولكن هناك أيضا أشياء عن طريق الصدفة وليس فيما ينشأ عن الصدفة شيء له هدف أو غاية من كونه ونشوءه، أما الأشياء التي تنشأ عن المقدرة البشرية على الصنعة فلها غاية وهدف، لأن من يملك المقدرة سيبين لك لماذا كتب ولأي هدف، وهذا الهدف نفسه أفضل من الشيء الذي نشأ من أجله وأنا أتكلم عن الأشياء التي تكون العلة فيها هي المقدرة في ذاتها لا بطريقة عرضية فحسب، فإن الشفاء هو بالتأكيد على الصحة قبل أن يكون علة المرض، وفن البناء هو علة تشييد البيت لا علة الهدم فكل ما ينشأ عن طريق المقدرة البشرية إنما ينشأ من أجل تحقيق هدف معين وهذه هي غايته وأفضل شيء بالنسبة له، أما ما ينشأ عن طريق الصدفة فلا ينشأ لهدف، ومع ذلك فقد يتفق أن يتولد عن الصدفة بعض الخير غير أنه لا يكون خيرا من خلال الصدفة ومن حيث نشأته عن طريق الصدفة لأن ما ينشأ عن طريقها يكون دائما غير محدد.

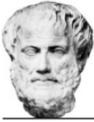
* «ب13» إن ما ينشأ وفقا للطبيعة إنما ينشأ لأجل هدف بحيث يكون النتاج الطبيعي دائما أكثر ملاءمة للهدف من النتاج الفني، فليست الطبيعة هي التي تحاكي الصنعة البشرية بل هذه هي التي تحاكي الطبيعة، كما أن المقدرة



البشرية على الصنعة قد وجدت لمساندة الطبيعة وإكمال ما تركته ناقصاً، ذلك لأن من بين الموجودات ما يبدو إن الطبيعة وحدها قادرة على إتمامه بنفسها دون حاجة إلى مساعدة ومن بينها الآخر ما لا تتمكن من إكماله إلا بالجهد أو تعجز عنه عجزاً تاماً، ويتضح هذا لدى نشوء الكائنات الحية، فبعض البذور تفتح دون أدنى قدر من الرعاية أيا كانت الأرض التي تسقط عليها، أما بعضها الآخر فيحتاج إلى فن الزراعة وكذلك تستطيع بعض الكائنات الحية أن تنمو بنفسها نمواً كاملاً وأن تبلغ النضج على العكس من الإنسان الذي يحتاج إلى عدد كبير من المهارات الضرورية للمحافظة على حياته، وهو يحتاج إليها في البداية بعد ولاته مباشرة ثم يحتاج إليها بعد ذلك لتغذيته.

* «ب14» فإذا كانت القدرة البشرية على الصنعة تحاكي الطبيعة فمن الواضح أن غائية منتجات القدرة البشرية أمر يعتمد على الطبيعة، ويصح لنا أن نقول إن كل ما ينشأ نشأة سليمة صحيحة إنما ينشأ من أجل هدف معين، وكل ما يؤدي إلى شيء جميل فقد نشأ نشأة صحيحة، وكل ما ينشأ أو قد تم نشوءه بالفعل ينتج شيئاً جميلاً حين تتم العملية الطبيعية بصورة سوية، أما ما يشذ عن الطبيعة فهو رديء ومضاد لما يوافق الطبيعة، وهكذا تتم النشأة السوية المطابقة للطبيعة لأجل تحقيق هدف معين.

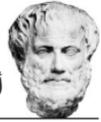
* «ب15» ويمكننا أن نتبين هذا من ملاحظة كل جزء من أجزاء جسمنا على حدة، فإذا تأملت الجفن مثلاً وجدت أنه لم يتكون عبثاً ولغير هدف، وإنما



وجد لحماية العينين وتوفير الراحة لهما والحيلولة دون نفاذ شيء من الخارج إليهما ونحن نقصد نفس الشيء عندما نقول إن الأشياء المصنوعة قد أنتجت لغرض ما، فعندما يتم بناء سفينة لنقل البضائع عن طريق البحر يكون الهدف المقصود من بنائها قد قدم بالفعل.

* «ب16» إن جميع الكائنات الحية أو على الأقل أفضلها وأرفعها قدراً قد نشأ عن الطبيعة وفي تطابق مع الطبيعة ولا معنى للاعتراض على هذا بأن أغلب الحيوانات قد نشأ ضد الطبيعة أي للإفساد وإلحاق الأذى والضرر، إن أسمى الكائنات الحية التي تعيش على الأرض هو الإنسان، وهذا يدل بوضوح على أنه قد نشأ نشأة طبيعية وفي تطابق مع الطبيعة.

* «ب17» فإذا كان الهدف دائماً أفضل من الشيء إذ إن كل شيء يكون أو ينشأ من أجل الهدف، كما أن لماذا هي الأفضل على الدوام بل تفوق جميع الأشياء في الفضل، وإذا كان الهدف المطابق للطبيعة هو آخر ما يتوصل إليه في مجرى الكون الطبيعي عندما يسير هذا سيراً متصلاً نحو الكمال، وإذا سلمنا إلى جانب هذا بأن الجسد هو أول ما يبلغ الكمال عند الإنسان ثم يأتي بعده ما يتعلق بالنفس، وأن كمال الأفضل بالنسبة للكون «النشوء» إنما يأتي على نحو من الأنحاء دائماً فيما بعد، وإذا سلمنا بعد هذا بأن النفس تنشأ متأخرة عن الجسم، وأن آخر ما ينشأ من ملكات النفس هو ملكة العقل، إذا إننا نلاحظ أن هذه الملكة هي بطبيعتها آخر ما يتكون عند الإنسان، ولهذا كانت هي الخير



الوحيد الذي تطمع الشيخوخة إلى امتلاكه، وإذا سلمنا بهذا كله تبين لنا أن ملكة العقل بحسب طبيعتها هي هدفنا وأن استخدامها هو الغاية الأخيرة التي من أجلها نشأنا، وإذا صح القول بإننا قد وجدنا وفقاً للطبيعة، فقد اتضح لنا أننا نعيش أيضاً لكي نفكر في شيء ولكي نتعلم.

* «ب18» دعنا نسأل الآن لأي موضوع من موضوعات الفكر القائمة قد أوجدنا الله؟ عندما سئل فيثاغورس عن هذا أجاب بقوله «لكي أتأمل السماء» وقد تعود أن يصف نفسه بأنه «إنسان» يتأمل السماء، وأنه إنما جاء إلى الحياة من أجل هذا الغرض.

* «ب19» يروي أيضاً عن «انكساجوراس» أنه سئل عن الهدف الذي يمكن أن يبتغيه الإنسان من مولده وحياته فأجاب لكي يتأمل السماء والنجوم الطالعة فيها والقمر والشمس وكأن كل ما عدا ذلك لا يستحق عناء الجهد.

* «ب20» هكذا يكون فيثاغورس قد زعم بحق أن كل إنسان قد أوجده الأله لكي يعرف وينظر ويتأمل وسواء أكان موضوع هذه المعرفة هو «نظام» الكون أم أي طبيعة أخرى، فذلك أمر قد نفحصه فيما بعد، ويكفي الآن ما قلناه ليكون أساساً نعتمد عليه، وما دامت الغاية بمقتضى الطبيعة هي ملكة التعقل فإن أفضل الأشياء هو استخدامها في التدبر والتفكير.

* «ب21» يجب على المرء أن يعلم سائر الأشياء من أجل الخير الكافي في

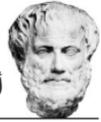


الإنسان نفسه ومن مجموع هذا الخير يقوم بالأمر الجسيمة من أجل الأمور النفسية ويؤثر الفضيلة من أجل ملكة التعقل لأن هذه هي أسمى الأشياء جميعاً.

* «ب22» تقودنا الفكرة التالية إلى نفس الهدف وهو «أن من يريد أن يكون سعيداً فلا بد له أن يتفلسف».

* «ب23» لما كان النظام يسود الطبيعة كلها فإنها لا تفعل شيئاً بالصدفة وإنما توجه كل شيء نحو هدف محدد، وهي حين تستبعد الصدفة والإنفاق تحرص على تحقيق الهدف أو الغاية بقدر يفوق كل فن بشري، إذ إن الصنعة البشرية كما نعلم محاكاة للطبيعة، ولما كان الإنسان يتألف بحسب طبيعته من نفس وجسد وكانت النفس أعلى قيمة من الجسد، كما كان الأقل شأنًا يندرج دائماً تحت الأفضل في سبيل تحقيق هدف معين فإن وجود الجسد إنما يكون من أجل وجود النفس نحن نعلم أن النفس تكون في جزء منها عاقلة، وفي جزء آخر غير عاقلة، وأن الجزء غير العاقل منها أقل قيمة من العاقل، ونستنتج من هذا أن الجزء غير العاقل يوجد من أجل الجزء العاقل، والجزء العاقل يحتوي على العقل، وهكذا يسوقنا البرهان إلى «القول» بأن كل شيء يوجد من أجل العقل.

* «ب24» إن فاعلية العقل هي التفكير والتفكير يقوم على النظر في موضوعات الفكر على نحو ما تكون فاعلية «عضو» الأبصار هي رؤية



المرئيات، هكذا يجعل الفكر والعقل كل شيء جديرا بأن يسعى إليه بنو الإنسان، إذ تكون بقية الأشياء جديرة بالسعي إليه بنو الإنسان، إذ تكون بقية الأشياء جديرة بالسعي إليها من أجل النفس، والعقل هو أرفع الأمور قيمة في مجال النفس، ومن أجله وحده يكون كل شيء آخر.

* «ب25» تكون بعض الأفعال العقلية حرة حرة كاملة وهي الأفعال التي تتحقق لذاتها أما الأفعال العقلية التي تنتج المعارف لأجل أي شيء آخر فهي تشبه الخدم، إن كل ما يتم فعله لذاته يفوق دائما في قيمته ما يكون فعله وسيلة لشيء آخر، وكذلك يكون الحر أعلى قدراً من غير الحر.

* «ب26» نحن عندما نستعين في سلوكنا بالتفكير فإننا نهتدي بهديه حتى ولو وضع المتفكر مصلحته الخاصة نصب عينيه وحدد أسلوب فعله وسلوكه من خلال وجهة النظر هذه، إنه ليستخدم جسده عندئذ فعله وسلوكه من خلال وجهة النظر هذه، إنه ليستخدم جسده عندئذ كما يستخدم الخادم، بل إنه ليضطر إلى إفساح مجال كبير للصدفة وهو على العموم يقبل على تلك الأفعال التي يقوم فيها التفكير أو العقل بدور أساس حتى لو استلزم الأمر منه في أغلب أعماله أن يستخدم الجسد استخدام الأداة.

* «ب27» وهكذا نرى أن التفكير المحض الخالص من الهدف أشرف وأقيم من التفكير الذي يكون مجرد خادم يتوسل به لبلوغ شيء آخر، إن التفكير الخالص يستمد شرفه من ذاته وحكمة العقل هي الشيء الذي يستحق

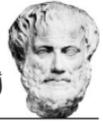


من الإنسان أن يسعى الطلبة منه، كما أن الفطنة العملية في الحياة جديرة بالسعي إليها من أجل الفعل أو السلوك، وإذا فالخير والشرف ملازمان للتفكير الفلسفي قبل كل شيء آخر، وإن لم يلازما بطبيعة الحال أي نوع من هذا التفكير كيفما اتفق، إذ ليس كل تصور بوجه عام مقرونا بالشرف وإنما نتوقع ذلك من تفكير المعلم الحكيم وحده عندما يتجه هذا التفكير إلى المبدأ السائد في الكون أن يكون قريباً من الحكمة وأن يكون حكمة بالمعنى الحقيقي.

* «ب28» إن الإنسان إذ حُرم الإدراك الحسي والعقل صار شبيهاً بالنبات وإذا حرم العقل وحده تحول إلى حيوان، أما إذا تحرر من غير المعقول وتمسك بالعقل فقد صار شبيهاً بالاله.

* «ب29» إن العقل الذي نتميز به عن سائر الكائنات الحية لا يتحقق بصورة كاملة إلا في ذلك الشكل من أشكال الحياة الذي لا يعترف بالاتفاق والصدفة، ولا بما هو عديم القيمة، صحيح أن لدى الحيوانات ومضات ضئيلة من الفطنة والعقل غير أنها لا تتمتع بأدنى نصب من الحكمة النظرية، فهذه الحكمة لا يوصف بها غير الآلهة ولا تنسب إلا للعقل الإنساني ومن جهة أخرى يتفوق كثير من الحيوان تفوقاً بعيداً على الإنسان في حدة الإحساس وفي الغرائز الطبيعية.

* «ب30» ومن المعترف به بوجه عام أنها متضمنة في تصور الخير، ذلك أن الرجل النابه الرفيع القدر الذي يتبع في حياته طريق العقل هو الذي لا يقع



ضحية للصدفة بل يعرف أكثر من غيره من الناس كيف يجرر نفسه من كل ما يخضع لها، فإذا استطعت أن تهب نفسك دائماً لهذه الحياة عن اقتناع كامل أمكنك أن تحيا حياة آمنة مطمئنة.

* «ب31» نحن جميعاً نختار ما يكون في نفس الوقت ميسوراً ونافعاً ومن ثم يجب الاعتراف بأن الفلسفة تملك هاتين الصفتين، وأن صعوبة تحصيلها أقل من النفع الذي تتيحه، ذلك أننا جميعاً نهتم بأسهل الأمور وأيسرها.

* «ب32» من السهل إثبات قدرتنا على اكتساب العلم بما هو عادل ومفيد وكذلك على تحصيل المعرفة بالطبيعة وبالموجودات الحقيقية الأخرى.

* «ب33» إن الأولى والبسيط يكون على الدوام أكثر من الثانوي والمركب، وكذلك يكون الأعلى في سلم الأولويات الطبيعي معروفاً أكثر من الأدنى، والمعرفة تنصرف إلى الاهتمام بما هو محدد ومنظم من الناحية المنطقية أكثر مما تهتم بضده كما تنصرف إلى العلل والمكونات الأساسية أكثر مما يترتب على هذه العلل أو المكونات والأشياء الطيبة تتفوق في تحدها وتنظيمها على الأشياء السيئة على نحو ما يتفوق الإنسان المترفع على الإنسان الوضيع، ومثل هذه الأضداد يتحتم أن تحمل نفس الصفات، فالأولى يحمل طابع العلة أكثر من الثانوي، فإذا انتفى ذلك فقد انتفى معه ما تلقى عنه وجوده وهكذا تنتفي الخطوط عندما تنتفي الأعداد كما تنتفي السطوح بانتفاء الخطوط، والأجسام بانتفاء السطوح، وكذلك الأمر مع الكلمة عندما ينتفي المقطع، ومع المقطع

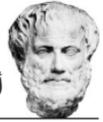


عندما ينتفي الحرف.

* «ب34» ولما كانت النفس أعلى قيمة من الجسد لأنها بحسب طبيعتها هي المسيطرة، وكانت توجد فيما يتعلق بالجسد صنعة بشرية وعلم كالطب والرياضة البدنية «اللذين نصفهما بأنها فرعان من فروع المعرفة، ونؤكد أن هناك فقراً من الناس يتقونها فمن الواضح أن الضرورة تقتضي وجود نوع من الرعاية ومن الصنعة التي تتعلق بالنفس وفضيلتها، كما تستلزم أن نكون قادرين على تحصيلهما، إذ إننا نملك القدرة على اكتساب معرفة بأمر يكون جهلنا بها أكبر كما تكون معرفتنا بها أشق وأصعب.

* «ب35» ويصدق هذا على معرفة الطبيعة فالتبصر بالعوامل الأساسية في الطبيعة وبأبسط عناصرها يكون منذ البداية أكثر ضرورة من التبصر بما قد نشأ عنها بصورة ثانوية لاحقة، إذ إن هذا الأخير لا ينتمي للأشياء الأولى من الناحية المبدئية، كما أن الأولى لا يستمد منه وجود، بل إن من الواضح أن سائر الأشياء تنشأ عن الأولى وعن طريقة تواجده.

* «ب36» مهما تكن النار والهواء والعدد أو أي «طبائع» أخرى هي العوامل الأساسية ومهما تكن هي الأولية بالنسبة للموجودات الأخرى، فمن المستبعد في كل الأحوال أن نعرف أي شيء عن هذه ما لم نعرف تلك إذ كيف يتسنى لأحد أن يفهم الكلمات المنطوقة إذا كان لا يعرف المقاطع أو كيف يمكنه أن يفهم المقاطع إذا كان لا يعرف شيئاً عن الحروف..



* «ب37» ليكن هذا هو «صفوة» القول عن وجود علم بالحقيقة وعلم بفضيلة النفس وعن قدراتنا على تحصيلها.

* «ب38» إن هذا التبصر بالمبادئ هو أعظم الخيرات وإنه أنفع من كل ما عداه، فذلك ما سيتضح مما سنقوله بعد... إننا جميعاً متفقون في الرأي على أن أرفع الرجال خلقاً وأشدهم بطبيعته قوة هو الذي ينبغي أن يتولى الحكم، كما أننا متفقون على أن القانون وحده هو الحاكم والسيد، ذلك القانون الذي يُعبر منطوقه عن حكمة وبصيرة.

* «ب39» منْ ذا الذي يمكنه أن يمثل لنا المعيار الدقيق ويكون لنا بمثابة الدليل الهادي إلى الخير غير الإنسان الحكيم في خلقه وسلوكه، إن الأمر الذي يختاره حين يتم اختياره على أساس من الرؤية والعلم هو الخير أما الضد المخالف له فهو الشر.

* «ب40» إن جميع الناس يميلون إلى اختيار ما يلائم طباعهم، فالعادل يختار الحياة العادلة، والشجاع حياة الشجاع، والبصير العاقل حياة التبصر والعقل، ومن هذا يتضح كذلك أن الإنسان الذي وهب ملكة العقل سيختار الفلسفة، لأن التفلسف هو مهمة هذه الملكة ومن هذا الحكم الصادر بأقصى درجة من اليقين يتبين أن ملكة التعقل هي أسمى الخيرات جميعاً.

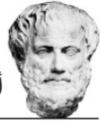
* «ب41» إن التأمل والمعرفة جديران بأن يسعى إليهما الإنسان إذ بهما



يستحيل على المرء أن يحيا الحياة التي تليق بإنسانيته ولكنها كذلك نافعان للحياة العملية، فما من شيء يمكن أن يبدو لنا خيرا إن لم تتحقق الغاية منه عن طريق التدبر والنشاط العاقل الحكيم وسواء أكانت الحياة السعيدة تكمن في البهجة والهناء أم في الفضيلة والسمو الخلقى أم في التعقل وممارسة العقل فلا بد للإنسان في كل هذه الأحوال من أن يتفلسف، لأننا لا نتوصل إلى الرأي الواضح في كل هذه الأمور إلا عن طريق التفلسف.

* «42» إن مَنْ يبحث في كل علم عن نتيجة مختلفة عنه، ويتطلب من كل معرفة أن تكون نافعة إنها يجهل تماما الجهل مدى الفارق الأساسي بين ما هو خير وما هو ضروري، وإنه في الواقع لفارق عظيم، ذلك أن تلك الأشياء التي نحبها من أجل شيء آخر ولا نستطيع أن نعيش بغيرها، هي الأشياء التي نصفها بأنها ضرورية وعلل مصاحبة، أما الأشياء التي نحبها لذاتها حتى ولو لم ينتج عنها شيء آخر فهي التي نصفها بأنها خيرات بالمعنى الصحيح لأن الواحد منها ليس جديراً بالاختيار من أجل شيء آخر وهلم جرا إلى ما لا نهاية.. إذ لا بد من التوقف في موضع ما..

والحق إنه لمن السخرية أن نبحث في كل شيء عن منفعة مختلفة عن الموضوع نفسه، ومن المضحك أن نسأل فيم ينفعنا هذا، لأي غرض يمكننا أن نستخدم هذا؟، فالذي يتكلم على هذا النحو لا يمكن بأي حال من الأحوال كما تعودت أن أقول أن يشبه بذلك الذي يعرف النبل والخير ويستطيع التفرقة



بين العلة والعلة المصاحبة.

* «ب43» ربما كانت أفضل وسيلة لمعرفة حقيقة قولي أن ينقلنا أحد عن طريق الفكر إلى جزر السعداء، هنالك لن نشعر بأننا في حاجة إلى شيء ولن يتيح لنا أي شيء من الأشياء الأخرى أية منفعة ولن يتبقى لنا إلا شيء واحد هو التفكير والتفلسف، أي هذا الذي نصفه الآن بالحياة الآخرة، وإذا صح هذا فكم يحق للواحد منا أن ينجل من نفسه إذا ما أتحت له فرصة الإقامة في جزر السعداء فأقعه العجز والتقصير عن اغتنامها، ولهذا فإن الجزاء الذي تمنحه المعرفة للإنسان لا يدعو أبدا للاحتقار كما أن الخير الذي يتمخض عنه غير قليل، وكما أننا نحصد ثمار العدالة في «هاديس» وهو العالم السفلي المظلم عالم الأشباح والأرواح على نحو ما يقول الحكماء من الشعراء، كذلك يجوز لنا أن نأمل في حصد ثمرات الفلسفة من جزر السعداء.

* ونكتفي بهذا القدر من دعوة «أرسطو» إلى التفلسف الفلسفة.



أرسطو

الفصل الرابع

أرسطو وكتاب النفس





أرسطو ونظرية النفس

في الفصل التالي نعرض لبعض نصوص كتاب النفس لأرسطو

عمل الإحساس بوجه الإجمال

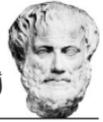
يقول أرسطو: يجب أن نفهم أن الحاسة بوجه عام في كل إحساس هي القابل للصور المحسوسة عارية عن الهيولي كما يقبل الشمع طابع الخاتم بدون الحديد والذهب.

ما الحاسة وتشبيه الشمع والطابع؟

فهو يقبل طابع الذهب أو البرنز لا من حيث إنها ذهب أو برنز والأمر كذلك في الحاسة التي تنتقل عن كل محسوس بتأثير ما فيه من لون أو طعم أو صوت لا من حيث إن كلا من هذه الأشياء جزئية بل من حيث إنه صفة معينة ومن حيث صورتها.

القوة والعضو:

وعضو الحس الأولى هو ذلك الذي توجد فيه قوة من هذا النوع «القبول



الصور المحسوسة» فالعضو والقوة إذن شيء واحد غير أن جوهرهما مختلف لأن الحاس يجب أن يكون مقدراً ما على حين ليست ماهية قوة الحس ولا الحاسة مقداراً بل صورة ما وقوة للحاس - فيظهر بوضوح من ذلك لماذا كانت شدة المحسوسات تفسد أعضاء الحس ذلك أن الحركة إذا كانت شديدة جداً على عضو الحس فإن الصورة «وهي ما نقول إنها الحاسة» تتلاشى كما يحدث في التناسب والمقام عندما تضرب الأوتار بشدة.

لماذا لا يحس النبات؟!

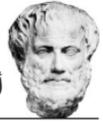
ويوضح هذا أيضاً أن النبات لا يحس مع أن فيه جزءاً من النفس وأن ينفعل إلى حد ما بتأثير الملموسات فيصبح مثلاً بارداً أو حاراً وعلّة ذلك أن النبات ليس فيه متوسط ولا مبدأ قادر على قبول الصدد المحسوسة «بدون هيولاها» وعلى العكس عندما ينفعل تؤثر فيه الهياوي كذلك وقد تسأل أخيراً إذا كان شيء ما لا يدرك الرائحة هل يمكن أن ينفعل بتأثير الرائحة أو كان شيء لا يبصر هل يمكن أن ينفعل بتأثير اللون وكذلك الحواس الأخرى.

هل يؤثر المحسوس بدون الإحساس؟ يقول أرسطو: -

لكن إذا كان موضوع الشم الرائحة فإن الأثر الذي تحدثه إذا كان لا بد أن يحدث عنها أثر ما هو الشم فقط ويترتب على ذلك أن الكائنات التي لا تشم لا تنفعل بتأثير الرائحة «ويمكن أن يقال ذلك عن الحواس الأخرى» ولا



يمكن أن تنفعل الأشياء القادرة على الإحساس إلا إذا كان فيها الحاسة الخاصة المقابلة ويتضح ذلك مما يأتي: فالضوء والظلام لا يؤثران في الأجسام أي أثر ولا كذلك الصوت ولا الرائحة بل التي تتأثر هي الأشياء الموجودة فيها هذه الصفات مثال ذلك أن الهواء الذي يصحب الرعد هو الذي يحطم الخشب - ومع ذلك «يقال» إن الملموسات والطعوم تؤثر وإلا فبأس فعل تتأثر الكائنات غير المتنفسة وتغير؟ هل «نقول» إذن أن المحسوسات الأخرى تؤثر أيضاً؟ أليس الأولى أن تقول إن ليس كل جسم يمكن أن ينفعل بالرائحة والصوت وأن الأجسام التي تنفعل على هذا النحو ليست صورتها معينة أو ثابتة كالهواء مثلاً؟ ذلك أن الهواء يصبح مشموماً إذا تغير تغيراً ما «فإن قيل»: ماذا تكون الرائحة إذن إذا لم تكن نوعاً من الانفعال؟ «قلنا» أليس شم الرائحة هو إدراك الإحساس على حين أن الهواء بعد انفعاله ليصبح سريعاً محسوماً.



لا توجد حاسة سادسة

لا توجد حاسة سادسة هذا ما يقوله أرسطو: -

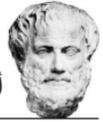
أما أنه لا توجد حاسة أخرى غير الخمس التي درسنا «أعني البصر والسمع والشم والذوق واللمس» فما نذكره يؤيد ذلك - ونعلم أن كل ما ندركه باللمس تحس به إذ إن جميع صفات الملموس من حيث هو كذلك مدركة باللمس فمن الضروري تبعاً لذلك أننا إذا فقدنا إحساساً فقدنا كذلك عضو الحس إلا أننا من جهة نحس باللمس جميع الأشياء التي ندركها بملامستها مباشرة واللمس حاسة موجودة فينا ومن جهة أخرى جميع الأشياء التي ندركها بمتوسطات وبغير أن نماسها تحس بواسطة أجسام بسيطة أعني الهواء والماء وهكذا تجري الأمور حتى إذا حدث إدراك لمحسوسات كثيرة مختلفة بالنوع بطريق وسط واحد فإن صاحب عضو الحس الملائم يجب بالضرورة أن يحس بكل من هذه المحسوسات المختلفة «مثلاً إذا كان عضو الحس مركباً من الهواء والهواء هو وسط الصوت واللون معاً» أما إذا أدركنا محسوساً واحداً بعده متوسطات «مثلاً اللون والمتوسط له هو الهواء والماء لأن كليهما مشنان» فيكفي أن يكون عندنا عضو واحد للحس مركب من أحد هذين المتوسطين



كي ندرك المحسوس بطريق المتوسطين لكن أعضاء الحس لا تتركب إلا من عنصرين فقط من العناصر البسيطة «ذلك أن الحدقة مكونة من الماء والسمع من الهواء والشم من هذا أو ذاك» أما النار فإما أنها لا تدخل في تركيب أي عضو من أعضاء الحس وإما أنها مشتركة فيها جميعاً «لأن شيئاً بدون النار لا يمكن أن يحس» وأما الأرض فإنها إما ليست من العناصر الداخلية في تركيبها على الإطلاق وإما أنها تمتزج في الأغلب مع اللمس بوجه خاص ويتبقى بعد ذلك ألا يوجد أي عضو من أعضاء الحس غير الأعضاء المركبة من الماء والهواء لكن أعضاء الحس المركبة من الهواء والماء توجد في الواقع من بعض الحيوانات وإذن فجميع الإحساسات موجودة في الحيوانات التي ليست ناقصة ولا مبتورة ذلك أن يظهر أن الحيوان المسمى بالخلد له أعين تحت الجلد وهكذا فإن إذا لم يوجد جسم بسيط آخر «غير معروف» أو صفة لا تتعلق بالأجسام الموجودة في عالمنا فلن تنقصنا أي حاسة.

المحسوسات المشتركة:

ولا يمكن كذلك أن يوجد عضو خاص للحس للمحسوسات المشتركة التي ندركها بالعرض بواسطة كل حاسة مثال ذلك: الحركة والسكون والشكل والمقدار والعدد والوحدة ذلك أننا ندركها جميعاً بالحركة إذ إننا بالحركة ندرك المقدار وبالتالي الشكل لأن الشكل مقدار ما وندرك الساكن بغياب الحركة



وندرک العدد بسلب الاتصال وكذلك بالمحسوسات الخاصة لأن كل إحساس ليس له إلا موضوع واحد - ويتضح من ذلك أن من المستحيل وجود حاسة خاصة لكل واحد من هذه المحسوسات المشتركة كالحركة مثلاً إذن تلك الحالة يجب أن ندرکها كما ندرک الحلو بالبصر «يحدث هذا الإدراك إذ يوجد عندنا الإحساس بمحسوسين في وقت معاً ولذلك إذا وجدا معاً أدرکناها معاً كذلك» وإلا لم ندرک المحسوسات المشتركة إلا بالعرض لكن في الواقع عندنا إحساس مشترك للمحسوسات المشتركة وليس هذا الإحساس بالعرض وإذن لا توجد حاسة خاصة لها لأننا في هذه الحالة لا ندرکها إلا كما ندرک ابن کلیون كما ذکرنا.

الإحساس بالعرض للمحسوسات:-

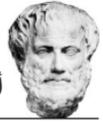
غير أن بالعرض تدرک الحواس المختلفة المحسوسات الخاصة الأخرى لا من حيث إنها حواس متفرقة بل من حيث إنها تكون حاسة واحدة عندما تحدث الإحساسات معاً لشيء واحد وهذه هي الحال عندما ندرک أن المرارة مر وأصغر لأن ليس من شأن أي حاسة أخرى أن تقول عن هاتين الصفتين إنها شيء واحد ومن هنا يأتي أيضاً أن الحس المشترك يخطئ: إذ يكفي مثلاً أن يكون الشيء أصغر حتى تعتقد أنه مرارة.

لماذا تعددت الحواس؟

ولكن قد نسأل: لأي غرض تعددت فينا الحواس بدلاً من حاسة واحدة؟



ألا يكون ذلك لئلا تخفي علينا المحسوسات المصاحبة والمشاركة كالحركة والمقدار والعدد؟ ذلك أنه إذا كان البصر هو الحاسة الوحيدة لإدراكها وكان الأبيض موضوعه لا تفلت منا هذه المحسوسات المشتركة بسهولة وبدت لنا كأن جميع المحسوسات واحدة لأن اللون والمقدار مثلاً يتصاحبان دائماً لكن المحسوسات المشتركة من حيث إنها توجد كذلك في محسوس آخر فهذا دليل على أنها متغايرة.

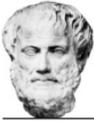


الحس المشترك

يقول أرسطو:

كما كنا ندرك أننا نبصر ونسمع فبالضرورة أن الحاس يدرك أن يبصر إما بالبصر وإما بحاسة أخرى لكن في هذه الحالة الأخيرة تكون نفس الحاسة هي حاسة البصر وحاسة موضوعة أي اللون ويترتب على ذلك إما أن توجد حاستان للمحسوس الواحد وإما أن يكون البصر حاسة نفسه وأيضاً إذا كانت الحاسة التي تدرك البصر حاسة أخرى فإما أن نذهب إلى ما لا نهاية له وإما أن تكون إحدى هذه الحواس حاسة نفسها فالأولى أذن أن نسلم بذلك لأول حاسة.

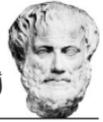
ولكن ها هنا صعوبة فإن قيل إن الإدراك بالبصر هو البصر وأن ما تبصر هو اللون أو ما يوجد في اللون فيه فإذا رأينا شيئاً هو نفسه يبصر فإن ما يرى أولاً يكون فيه أيضاً اللون قلنا: إن من اليقين إذن أن «الإدراك بالبصر» لا يحمل علة معنى واحد لأننا حتى إذا لم تر شيئاً فإننا مع ذلك نميز بالبصر بين النور والظلام ولو أن ذلك لا يكون بضرب واحد وأيضاً فإن ما يبعد فهو بنحو ما ملون ما دام كل عضو من أعضاء الحس فهو قبول المحسوس بدون



الهيولي ولهذا أيضاً فإن المحسوسات إذا غابت ظلت الإحساسات والصور موجودة في أعضاء الحس.

فعل المحسوس والحاسة واحد:-

إن فعل المحسوس والحاسة فعل واحد غير أن ماهيتها مختلفة ولنضرب مثلاً بالصوت بالفعل والسمع بالفعل: فمن الممكن ألا يسمع من عنده سمع وألا يرن من عنده صوت ولكن عندما يخرج إلى الفعل من يسمع بالقوة ويرن من عنده رنين بالقوة عندئذ يحدث السمع بالفعل والصوت بالفعل ويمكن أن يسمى هذا بالسمع والرنين فإذا كانت الحركة والفعل والانفعال توجد في المنفعل فبالضرورة أن يوجد الصوت بالفعل والسمع بالفعل من السمع بالقوة لأن فعل الفاعل والمحرك يحصل في المنفعل ولهذا ليس القدور في أن يكون المحرك نفسه متحركاً فعل المصوت إذن هو الصوت أو الرنين وفعل ما يسمع السمع أو السماع لأن السمع يقال على معنيين وكذلك المصوت فالأمر كذلك في الحواس الأخرى والمحسوسات الأخرى ذلك أن كما أن الفعل والانفعال يوجدان في المنفعل لا في الفاعل كذلك فعل المحسوس وفعل قوة الحس يوجدان في الحاس غير أن في بعض الأحوال يسمى كل فعل منهما باسم خاص كالرنين والسمع مثلاً وفي بعض الأحوال الأخرى لا يسميان ذلك أننا نسمي الإبصار فعل البصر ولكن فعل اللون لا اسم له ونسمي التذوق فعل قوة الذوق ولكن فعل المذوق لا اسم له والآن من حيث إن فعل المحسوس وفعل الحاس هما فعل



واحد على الرغم من تباين ماهيتهما فمن الواجب أن يزول أو يتبقى معاً كل من السمع والصوت إذا حملا على معنى الفعل وكذلك أيضاً الطعم والذوق ومثل ذلك الحواس الأخرى والمحسوسات الأخرى على العكس من ذلك فيما يختص بالمحسوسات التي يقال إنها محسوسات بالقوة فليس هذا بواجب.

خطأ الطبيعيين الأولين: - يقول أرسطو:

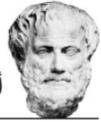
ولذلك أخطأ الطبيعيون الأولون عندما ذهبوا إلى أن لا يوجد أبيض ولا أسود بدون البصر ولا طعم بدون الذوق فإن صح رأيهم من جهة فإن غير صحيح من جهة أخرى ذلك أن الإحساس والمحسوس يقالان على معنيين: أحدهما بالقوة والآخر بالفعل لذلك يصح قول هؤلاء الفلاسفة في حالة الفعل ولكن لا يصح في الحالة الأخرى ويرجع خطأهم إلى حمل الألفاظ على المعنى المطلق على حين أنها لا تقبل الإطلاق.

الحاسة تناسب كالحال في السمع:

وإذا كان التوافق ضرباً من النغم وكان النغم والسمع من جهة شيئاً واحداً وليس شيئاً واحداً من جهة أخرى وكان التوافق هو التناسب فمن الضروري أن يكون السمع كذلك ضرباً من التناسب ولهذا السبب كان كل إفراط أو تفريط كالصوت الحاد والغليظ مما يفسد حاسة السمع وكذلك في الطعوم فإن المفرطة منها تتلف الذوق وفي الألوان يفسد الإفراط في الضوء اللامع والمعتم البصر.



وفي الشم الرائحة القوية سواء أكانت حلوة أم مرة كل هذا يدل على أن الحاسة تناسب ما ولهذا السبب أيضاً تكون المحسوسات لذيدة إذا بلغت حد التناسب المطلوب وقد كانت من قبل نقية وبدون امتزاج كالحال في اللاذع أو الحلو أو المالح فإنها لذيدة ولكن على وجد العموم الممتزج أكثر توافقاً عن الحاد أو الغليظ فقط وبالنسبة للحس ما يمكن أن يسخن أو يبرد لكن الحاسة هي التناسب على حين أن المحسوسات المفرطة هي علة الألم أو الفساد.



المحسوسات عند أرسطو

المحسوسات المغايرة عند أرسطو: -

يقول أرسطو: كل حاسة هي إذن خاصة بمحسوسها توجد في عضو الحس من حيث هو كذلك وتحكم على الصفات المميزة للمحسوس المقابل له مثال ذلك أن البصر يفصل بين الأبيض والأسود والذوق بين الحلو والمر والأمر كذلك أيضاً في الحواس الأخرى ولكن لما كان حكماً يقع أيضاً على الأبيض والحلو وعلى كل محسوس في صلته بمحسوس آخر فبأي مبدأ ندرك تغايرها يجب أن يكون ذلك بحاسة من حيث إننا أمام المحسوسات ومن هنا يتضح أيضاً لماذا لا يكون اللحم العضو الأخير للحس إذ يكون هذه الحالة من الواجب أن ما يحكم بملاقة المحسوس.

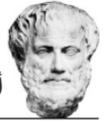
ويترتب على ذلك ألا يمكن الحكم بقوى متفرقة أن الحلو مختلف عن الأبيض ويجب أن تكون هناك قوة واحدة تدرك كلا منهما بوضوح وإلا يكفي أن أرى أحدهما وأن ترى أنت الآخر كي يظهر الفرق بينهما ولكن يجب أن تكون هناك قوة واحدة هي التي تقول هذا الفرق لأننا نقول إن الحلو غير الأبيض فما يميز هو أذن قوة واحدة تعقل وتدرك كما تميز - يظهر إذن أن ليس



يمكن الحكم على المحسوسات المتفرقة بأعضاء متفرقة أما أن لا يمكن أن يحكم عليها في أوقات متفرقة فهذا ما سوف نبين ذلك أنه لما كانت نفس القوة هي التي تقول إن الحسن والقبيح متميزان وكذلك أيضاً فإنها عندما تقول على شيء بأنه مختلف تقول على الآخر إنه كذلك «ولفظ «عندما» هنا ليس بالعرض بالنسبة للقول أعني بالعرض المعنى الذي أثبت فيه الآن أن شيئاً يختلف عن غيره دون ذكر تحالفهما بالفعل في الوقت الحاضر على العكس فإن هذه القوة تقول على النحو التالي: فهي تحكم في الآن وتحكم أن الأشياء مختلفة بالفعل في الآن» لهذا إذن كانت القوة تحكم في وقت واحد فهي لذلك وحدة لا تنفصل في وقت لا ينفصل.

ولكن «قد يعترض» بأن يستحيل في الشيء الواحد أن يتحرك حركات متضادة في وقت واحد إذ إن هذا الشيء غير منقسم وفي وقت غير منقسم. يقول أرسطو:-

فإذا كان المحسوس حلواً فإنه يحرك الحاسة أو التفكير بنحو معين على حين أن المرء يحرك بنحو مضاد والأبيض بنحو آخر فهل إذن ما يحكم هو في نفس الوقت من جهة لا ينقسم ولا ينفصل بالعدد من جهة ومنفصل بالجواهر من جهة أخرى؟ فيكون المنقسم هو ما يدرك المحسوسات المنقسمة من وجه إلا أن من وجه آخر يدركها هذا المنقسم من حيث إنها لا تنقسم لأنه قابل للقسمة بالجواهر غير قابل للقسمة بالمكان والعدد.



اعتراض:-

أو أن هذا الحل مستحيل؟ ذلك أن بالقوة فقط الشيء الواحد اللا قابل للقسمة يستطيع أن يكون المتضادين معاً وليس ذلك بالجوهر: بل يصبح منقسماً بإخراجه إلى الفعل ولا يمكن أن يكون في نفس الوقت أبيض وأسود ويترتب على ذلك ألا يمكن أن يقبل صور الأبيض والأسود «إذا سلمنا» أن بهذا الجنس من القبول يكون الإحساس والتفكير التشبيه بالنقطة.

ويشبه أن يكون هذا كما هو في النقطة التي يسميها بعض الفلاسفة وهي واحدة أو اثنتين ومن حيث كذلك يمكن أن تنقسم وإذن فالقوة التي تحكم واحدة من جهة أنها لا تقبل القسمة وهي تحكم على الشئيين معاً ولكن من جهة أنها قابلة للقسمة فإنها ليست واحدة إذن إنها تستعمل النقطة الواحدة مرتين في وقت واحد.

وإذن فمن جهة أنها تنظر إلى الطرف على أن اثنين فإنها تحكم على شئيين وعلى شئيين منفصلين بقوة منفصلة بنوع ما ولكن من حيث إنها تنظر إلى الطرف كأنه شيء واحد فإنها تحكم على شيء واحد وتدرک المحسوسات في وقت واحد.

فقد ذكرنا إذن ما فيه الكفاية فيما يختص بالمبدأ الذي يكون الحيوان قادراً على الإحساس.

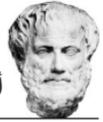


التفكير والإدراك والتخيل

عن الإحساس والتفكير يقول أرسطو: -

هناك إذن صفتان أساسيتان تميزان ما تعرف به النفس: الأولى الحركة الموضوعية والثانية التفكير والحكم والإحساس ومن جهة أخرى يذهبون عادة إلى أن التفكير والعقل كأنهما نوع من الإحساس «لأن النفس في كلتا الحالين تميز وتعرف شيئاً موجوداً» وأن قدماء الفلاسفة يوحّدون بين الحكم والإحساس «فهذا أنبادوقليس يقول «يزيد العقل في الإنسان بما يقدم إلى الحواس» ويقول في كتاب آخر «ومن هنا يحصل عند الإنسان دائماً أفكار تتغير» وتدل أقوال هوميروس على نفس الشيء إذ يقول: «لأن هذا هو العقل «في الإنسان» فجميع هؤلاء يعتقدون أن التفكير كالإحساس شيء جسماني وأن الشبيه يدرك ويفكر بالشبيه.

ومع ذلك فمن الواجب عليهم في نفس الوقت أن يبينوا علة الخطأ وهو ظاهرة توجد في الحيوانات بوجه خاص وتقع النفس فيه أغلب حياتها ويترتب بالضرورة «في مذهبهم» إما كما يذهب بعض الفلاسفة أن جميع الظواهر صادقة وإما أن مماسة اللاشبيه هي التي تحدث الخطأ لأن هذا هو ضد معرفة الشبيه بالشبيه ولكنهم يسلمون عادة بأن الخطأ في الأضداد كالعلم بها شيء



واحد» فمن البين كما نقول إذن أن الإحساس والعقل ليسا أمراً واحداً ذلك أن أحدهما يشترك فيه جميع الحيوانات والآخر عدد صغير فقط وأيضاً فإن التفكير «الذي يشمل المستقيم وغير المستقيم من حيث إن التفكير عقل وظن صادق وغير المستقيم أضدادها» ليس هذا التفكير مطابقاً للإحساس كذلك لأن الإحساس بالمحسوسات الخاصة صادق دائماً ويوجد عند جميع الحيوانات على حين أن التفكير قد يكون خطأ كما يكون صواباً ولا يوجد إلا عند الكائنات التي لها عقل - أما التخيل فهو شيء متميز عن الإحساس والتفكير ولو أن لا يمكن أن يوجد بدون الإحساس وأن بدون التخيل لا يحصل الاعتقاد أما أن التخيل ليس تفكيراً ولا اعتقاداً فهذا واضح ذلك أن التفكير متوقف علينا كما نريد «لأننا نستطيع أن نتخيل شيئاً أمامنا كما يفعل أولئك الذين يرتبون الأفكار في مواضع معينة للذاكرة ويكونون فيها صوراً» على حين أن الظن لا يتوقف علينا لأن الظن الذي يحدث عندنا إما أن يكون صادقاً وإما أن يكون كاذباً وأيضاً فإننا حين يحصل عندنا ظن بأن شيئاً مرعب أو مخيف تنفعل في الحال وكذلك إذا كان الشيء مطمئناً.

أما إذا كنا تحت تأثير التخيل فإننا نتصرف كما لو كنا نتأمل في صورة الأشياء التي توحى بالخوف أو الأمن وهناك أيضاً أنواع من الاعتقاد: العلم والظن والعقل وأضدادها ولكن التمييز بين هذه الأنواع يجب أن يبحث في موضع آخر.

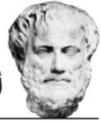


التخيل عند أرسطو:

ولنعد إلى القول في التفكير: لما كان التفكير مختلفاً عن الإحساس وكان يبدو من أمره أنه يشمل التخيل من جهة والاعتقاد من جهة أخرى فيجب بعد تحديد طبيعة التخيل أن تفحص أيضاً عن الاعتقاد إذا كان التخيل إذن هو القوة التي بها نقول إن الصورة تحصل فينا وإذا ضربنا صفحاً عن استعمال المجاز لهذا الاصطلاح فإننا نقول إن التخيل ليس إلقاءً أو حالة نحكم بها ونستطيع أن نكون على صواب أو خطأ والأمر كذلك في الإحساس والظن والعلم والتعقل.

ليس التخيل إحساساً: -

أما أن التخيل يختلف عن الإحساس فهذا بين وهناك الأسباب: ذلك أن الإحساس إما قوة وإما فعل مثال ذلك البصر والأبصار على العكس قد توجد الصورة في غيتها كالصور التي نشاهدها في النوم وأيضاً فإن الإحساس حاضر دائماً وليس التخيل كذلك ومن جهة أخرى إذا كان التخيل والإحساس شيئاً واحداً بالفعل فيجب أن يكون التخيل موجوداً في جميع الحيوانات ولكن يبدو أن الأمر ليس كذلك كالحال في النمل والنحل والدود وأيضاً فإن الإحساسات صادقة دائماً على حين أن الصور في معظم الأحيان كاذبة وأيضاً فنحن لا نقول حين نوجه نظرنا إلى المحسوس أن يظهر لنا كصورة إنسان مثلاً بل نقول ذلك حين لا



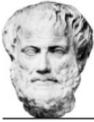
يتكون مشاهدنا واضحة «وعندئذ يكون الإحساس صادقاً أو كاذباً» وأخيراً كما ذكرنا من قبل فإن الصور البصرية تظهر حتى إذا كانت الأعين مغمضة.

وليس ظناً:-

إلا أن التخيل لا يكون أحد الأمور الصادقة دائماً كالحال في العلم أو التعقل لأن التخيل قد يكون كاذباً أيضاً يبقى إذن أن ننظر هل هو الظن لأن الظن قد يكون صادقاً أو كاذباً إلا أن الظن يكون مصحوباً باعتقاد قوي «ذلك أن لا يكون ألا يعتقد صاحب الظن فيما يظن» ولكن لا يوجد الاعتقاد القوي في أي حيوان على حين أن التخيل يوجد عند عدد كبير فيها.

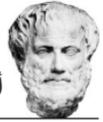
وليس ظناً مصحوباً بالإحساس:-

وأيضاً فإن كل ظن يجبه اعتقاد قوي وكل اعتقاد قوي إقناع وكل إقناع عقل ولكن من بين الحيوانات ما يوجد عنده تخيل دون العقل - فمن الواضح عندئذ أن التخيل ليس هو الظن المصحوب بالإحساس ولا الظن الحاصل عن الإحساس ولا المركب من الظن والإحساس لما ذكرناه ولأن في مذهبهم يكون موضوع الظن ليس شيئاً آخر إلا موضوع الإحساس: أعني أن التخيل يكون المركب مثلاً من الظن بالأبيض والإحساس بالأبيض لأنه لا يمكن أن ينتج عن الظن بالخير والإحساس بالأبيض فأن نتخيل إذن هو في هذا المذهب أن نظن عن الشيء الذي نحس له وليس ذلك بالعرض إلا أننا في الحقيقة ندرك



بالإحساس أشياء كاذبة يحصل لنا عنها نفس الوقت اعتقاد صادق. مثال ذلك أن الشمس تظهر في حجم قطرة قدم ومع ذلك نعتقد أنها أعظم من الأرض المسكونة ويترتب على ذلك ما أننا قد عدلنا عن الظن الصادق الموجود فينا ولو أن الشيء لم يتغير ولم يحصل عندنا سهو أو عدول عن اعتقادنا وإما أن نحفظ بالظن الصادق الموجود فينا وعندئذ يكون الظن نفسه بالضرورة صادقاً وكاذباً معاً ومع ذلك لا يمكن أن يصبح الظن الصادق كاذباً إلا في الحالة التي يتبدل فيها الشيء بغير علمنا ويترتب على ذلك أن التخيل ليس أمراً من هذه الأمور ولا المركب منها.

ولكن ما دام الشيء المتحرك يمكن أن يحرك غيره بدوره وكان التخيل كما يظهر ضرباً من الحركة ولا يمكن أن يحصل بدون الإحساس ولكن في الكائنات التي تحس فقط وعن أشياء هي موضوعات الإحساس وكانت الحركة يمكن أن تحصل عن الإحساس بالفعل أيضاً وكانت هذه الحركة بالضرورة شبيهة بالإحساس فإذا سلمنا بهذه المقدمات فالحركة هذه طبيعتها يجب بالضرورة أولاً: ألا تكون قادرة على الوجود بدون إحساس وأن تنتمي إلى الكائنات التي لا تحس وثانياً: أن تجعل صاحبها قادراً على أن يفعل بعدد كبير من الأفعال وأخيراً أن تكون نفسها صادقة أو كاذبة - أما لماذا كانت النتيجة الأخيرة فذلك لأن الإحساس بالمحسوسات الخاصة صادقة دائماً أو على الأقل لا يصيبه الخطأ إلا في القادر ثم يحصل الإدراك بأن هذه المحسوسات الخاصة أعراض وعندئذ



يمكن أن يحدث الخطأ لأن أن يكون المحسوس أبيض فهذا أمر لا نخطئ فيه ولكن أن يكون الأبيض هذا الشيء أو ذاك فهذا ما يمكن أن نخطئ فيه وثالثاً: هناك إدراك المحسوسات المشتركة نعني المحسوسات المشتقة عن المحسوسات بالعرض والتي تنتمي إليها المحسوسات الخاصة أعني مثلاً الحركة المقدار وهما أعراض للمحسوسات الخاصة وفيهما يقع معظم الخطأ في الإحساس لكن الحركة الحاصلة عن أثر الإحساس بالفعل تختلف باختلاف هذه الأنواع الثلاثة من الإحساسات فالنوع الأول ما دام الإحساس حاضراً أم غائباً ولا سيما إذا كان المحسوس بعيداً.

تعريف التخيل :-

فإذا لم يكن في التخيل صفات غير التي ذكرنا وكان منا وصفنا فيكون التخيل الحركة المتولدة عن الإحساس بالفعل ولما كان البصر هو الحاسة الرئيسية فقد اشتق التخيل «فنتاسياً» Phantasia اسمه من النور «فاوس» Phaos إذن بدون النور لا يمكن أن نرى ولما كانت الصور تبقى فينا وتشبه الإحساسات فإن الحيوانات تفعل أفعالاً كثيرة بتأثيرها بعضها لأنها لا يوجد عندها عقل وهذه هي البهائم وبعضها الآخر لأن عقلها يُظلم بالانفعال أو الأمراض أو النوم كالحال في الإنسان.

وفي القدر الذي ذكرناه عن طبيعة التخيل وعلته كفاية.



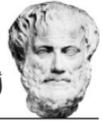
أرسطو والعقل المنفعل

العقل عند أرسطو: -

يقول أرسطو ولننظر الآن في جزء النفس الذي به تعرف وتفهم سواء أكان هذا الجزء مفارقاً أم لم يكن مفارقاً من حيث المقدار بل حسب العقل فقط وعلينا أن نفحص ما يميز هذا الجزء وكيف يحصل التعقل.

العقل أو الفكر: -

إذا كان التعقل إذن شبيهاً بالإحساس فيكون التفكير إما انفعالاً عن المعقول وإما أمراً آخر من هذا الجنس يجب إذن أن يكون هذا الجزء من النفس لا ينفع مع قدرته على قبول الصورة وأن يكون بالقوة شبيهاً بهذه الصورة دون أن يكون هذه الصورة لنفسها وأن يكون العقل بالنسبة إلى المعقولات كنسبة قوة الحس إلى المحسوسات يجب إذن أن يكون العقل بالضرورة من حيث إن يعقل جميع الأشياء غير ممتزج كما يقول «أنكساجوراس» حتى يستطيع أن يأمر أي يعرف لأن حين يظهر صورته إلى جانب الصورة الغريبة فإن يعترض سبيل هذه الصورة ويحول دون تحقيقها.



العقل بالقوة مكان الصور :-

وإذن فليست له طبيعة تخصه إلا أن يكون بالقوة وهكذا فإن هذا الجزء من النفس الذي يسمى عقلاً « أعني بالعقل بأن تفكر النفس وتتصور المعاني » ليس شيئاً بالفعل قبل أن يفكر ولهذا السبب أيضاً يجدر بنا ألا نقول إن العقل يمتزج بالجسم إذ يصبح عندئذ ذا صفة محدودة إما بارداً أو حاراً بل قد يكون له عضو من الأعضاء مثل قوة الحس ولكن في الواقع ليس له أي عضو ولذلك قد أصاب من زعم بأن النفس مكان الصور على أن هذا لا يصدق على النفس بكليتها بل على النفس العاقلة ولا يصدق على الصور بالفعل بل على الصور بالقوة أما أن عدم انفعال قوة الحس وعدم انفعال قوة العقل لا يتشابهان فهذا بين إذا نظرنا إلى أعضاء الحس والحاسة ذلك أن الحاسة لا تقوى على الإدراك عقب تأثير محسوس قوي مثال ذلك أننا لا ندرك الصوت عقب سماع أصوات شديدة وكذلك لا نستطيع أن نبصر أو نشم عقب رؤية ألوان شديدة أو روائح شديدة لأن العقل عندما يعقل معقولاً شديداً فإنه على العكس يكون أكثر قدرة على تعقل المعقولات الضعيفة ذلك أن قوة الحس لا توجد مستقلة عن البدن على حين أن العقل مفارقه إلا أن العقل متى أصبح المعقولات.

العقل المستفاد :-

على المعنى الذي نسمي به «العالم» ذلك الذي بالفعل «وهو ما يحصل للعالم حين يستطيع أن ينتقل إلى الفعل بنفسه» فإن يكون مع ذلك بالقوة بنوع ما لا كما



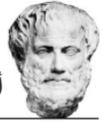
كان قبل أن يتعلم أو يحصل وأيضاً فإن يكون عندئذ قادراً على أن يعقل ذاته.

كيف تدرك الصورة والماهية؟!

ولما كان المقدار يختلف عن ماهية المقدار والماء يختلف عن ماهية الماء «والأمر كذلك في كثير من الأشياء الأخرى لا في جميعها لأن بعضها يتطابق» فإننا نحكم على ماهية اللحم وعلى اللحم نفسه إما بقوى مختلفة وإما بنفس القوة ولكن بطرق شتى لأن اللحم لا يوجد مستقلاً عن المادة بل كتجويف الأنف: صورة معينة في مادة معينة إننا نحكم إذن بقوة الحس على البارد والحر وعلى جميع الصفات التي تكون عن تناسب في اللحم ولكننا نحكم بقوة أخرى إما مفارقة للحس وإما مضافة إليها كنسبة الحظ المنكسر حين يستقيم إلى الخط المنكسر نفسه - على ماهية اللحم - والأمر كذلك أيضاً في المجردات فالمستقيم يشبه تجويف الأنف لأن مع المتصل إلا أن ماهيته إذا كانت ماهية المستقيم مختلفة عن المستقيم شيء آخر ولنقل مثلاً إن المستقيم الزوج إن إذن بقوة أخرى مختلفة أو بنفس القوة ولكن بطرق أخرى نميزها على وجه العموم إذن كما أن موضوعات المعرفة مفارقة لهيولائها فالأمر كذلك في «أفعال» العقل.

بعض الصعوبات: -

يقول أرسطو: وها هنا صعوبة: إذا كان العقل بسيطاً ولا منفعلاً وكان كما يقول «أنكساجوراس» لا يشارك أي شيء آخر فكيف يعقل إذا كان التفكير



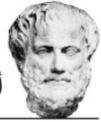
انفعالاً ما؟ ذلك أن من حيث إن شيئين يشتركان في أمر منقول عن أحدهما أن يفعل وعن الآخران ينفع - وأيضاً: هل العقل نفسه معقول؟ لأن عندئذ إما أن يكون في المعقولات الأخرى عقل إذا لم يكن معقولاً بشيء آخر غير ذاته وإذا كان المعقول واحداً بالنوع وإما أن يكون هناك عنصر قريب يمتزج بالعقل هو الذي يجعله معقولاً كما هو الحال في المعقولات الأخرى. أم هل الأولى بنا أن نعود إلى تمييزنا السابق عن الانفعال من أن يتم بفضل عنصر مشترك فتقول إن العقل هو بالقوة وبوجه ما المعقولات نفسها إلا أن بالفعل ليس أي واحد فيها قبل أن يعقل؟ ويجب أن يكون الأمر فيه كالحال في اللوح الذي لم يكتب فيه شيء بالفعل: فهذا بالضبط هو الحال في العقل وأيضاً بأن العقل نفسه معقول كسائر المعقولات ذلك أن فيما يختص بالأمر غير «الهيولانية» العاقل والمعقول واحد لأن العقل النظري وما يوفر شيء واحد «أما لماذا لا ننكر دائماً فسوف نفحص عن ذلك» وعلى العكس الأشياء الهيولانية لا توجد فيها المعقولات إلا بالقوة فقط ويترتب على ذلك أن الأشياء الهيولانية تعرض عن العقل «لأن العقل بالقوة لهذه الأشياء بدون هيولائها» أما العقل فهو معقول.



أرسطو والعقل الفعال

العقل المنفعل والفعال :-

يقول أرسطو: ولكن ما دمنا في الطبيعة كلها نميز أولاً ما يصلح أن يكون هيولي لكل نوع «وهذا هو بالقوة جميع أفراد النوع» ثم شيئاً آخر هو العلة والفاعل لأن يحدثها جميعاً والأمر فيها كالنسبة بين الفن إلى هيولاه فمن الواجب في النفس أيضاً أن نحدد هذا التمييز ذلك أننا نميز من جهة العقل الذي يشبه العلة الفاعلة لأن يحدثها جميعاً حال شبيه بالضوء: لأن بوجه ما الضوء أيضاً يجيل الألوان بالقوة إلى ألوان بالفعل وهذا العقل هو المفارق اللا منفعل غير الممتزج من حيث إن بالجواهر فعل لأن الفاعل دائماً أسمى من المنفعل والمبدأ أسمى من الهيولي والعلم بالفعل هو موضوعه شيء واحد أما العلم بالقوة فهو متقدم بالزمان في الفرد ولكنه ليس متقدماً بالزمان على الإطلاق ولا نستطيع أن نقول إن هذا العقل يعقل تارة ولا يعقل تارة أخرى وعندما يفارقه فقط يصبح مختلفاً عما كان بالجواهر وعندئذ فقط يكون خالداً وأزلياً «ومع ذلك فإننا لا نتذكر لأن غير منفعل على حين أن العقل المنفعل فاسد» وبدون العقل الفعال لا نعقل.



أفعال العقل:

تعقل الأشياء المركبة والأشياء اللا منقسمة

يقول أرسطو:

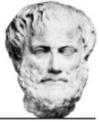
يحصل تعقل الأشياء اللا منقسمة في الأمور التي لا يمكن أن يقع فيها غلط ولكن الأشياء التي يجوز عليها الخطأ والصواب ففيها تركيب من معان وكأنها معنى واحد وكما يقول أبناودقليس: «وحيث ظهر إلى الوجود رءوس كثيرة لا رقاب لها» ثم اجتمعت بعد ذلك بالمحبة فكذلك هذه المعاني كانت متفرقة أولاً ثم أصبحت مركبة مثال ذلك معاني ما لا يقاس وقطر المربع أما فيها يختص بالأشياء الماضية والمستقبلية فإن الزمن يتدخل كعنصر مضاف في تركيبها ذلك أن الخطأ يوجد دائماً في التركيب لأننا حين نحكم على الأبيض أن لا أبيض فإننا ندخل اللا أبيض في التركيب ويمكن أيضاً أن نسمي جميع هذه المركبات قسمة ومهما يكن من شيء فليس الخطأ والصواب في قولنا أن كليون أبيض فحسب بل كذلك في أن كان أو سيكون والمبدأ الذي يوجد كلاً من هذه المركبات هو العقل.



تعقل المعاني الكلية عند أرسطو: -

ولما كان اللا منقسم يقال على معنيين: إما اللا منقسم بالقوة وإما بالعقل فليس ما يمنع أن تعقل اللا منقسم عندما نعقل الطول «لأن لا ينقسم بالفعل» في زمن لا تنقسم فالزمن يكون منقسماً أو لا منقسماً كالطول فلا تستطيع إذن أن نقول ما جزء الطول الذي يعقله العقل في كل نصف من الزمن لأن الكل إذا كان لا منقسماً فالنصف لا يوجد إلا بالقوة ولكن العقل إذا عقل كل نصف على حدة فإن يقسم الزمن كذلك وعندئذ يكون كأن يعقل أطوالاً كثيرة فإذا عقل العقل الطول مكوناً من نصفين فإن يعقل في زمن مكون أيضاً من نصفين أما اللا منقسم بالصورة لا بالكم فإننا نعقله في زمن لا ينقسم وبفعل للنفس لا منقسم ومع ذلك فإن نعقل اللا منقسم وزمن هذا التعقل بالعرض فقط لا على نحو اللا منقسم بالفعل.

ذلك أننا نعقله على ما نحو نعقل أن اللا منقسم بالفعل لا منقسم ومع ذلك فإن هذا اللا منقسم بالفعل يوجد فيه شيء لا منقسم «ولكن لا يفارق أيضاً» هو الذي يحدث وحدة الزمن والطول وهذا العنصر اللا منقسم موجود كذلك في كل متصل زمناً كان أو طولاً والنقطة وكذلك كل قسمة وكل ما لا ينقسم على هذا النحو تتضح لنا كالحال في العدم وتستطيع أن نقول كذلك في الأحوال الأخرى كالحال مثلاً في معرفة السر أو الأسود لأننا بأضدادها نعرفها بنحو ما ولكن العقل الذي يعرف يجب أن يكون هذا الضد بالقوة



وأن يكون وإياه شيئاً واحداً فإذا وجدت علة لا ضد لها عقلت نفسها وتكون موجودة بالفعل ومفارقة.

قد يكون العقل صادقاً دائماً:

جملة القول: كل قضية تثبت محمولاً لموضوع كالحكم نفسه ولذلك فهي دائماً إما صادقة وإما كاذبة وليس الأمر في العقل كذلك دائماً: إذا كان موضوعه الماهية بمعنى حقيقة الشيء فهو صادق دائماً ولكن ليس حين يثبت محمولاً لموضوع لكن كما أن الإدراك بالبصر لمحسوسه الخاص يكون دائماً صادقاً «أما إذا كان الأبيض إنساناً أو لا إنسان فالإدراك ليس دائماً صادقاً في هذه المعرفة» كذلك الأمر في الأشياء العارضة عن الهولي.

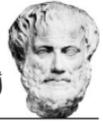


العقل العملي عند أرسطو

يقول أرسطو العلم بالفعل وموضوعه شيء واحد ولكن العلم بالقوة متقدم بالزمان في الشخص ولو أن على الإطلاق ليس متقدماً حتى في الزمان لأن كل ما يكون ينشأ عن موجود بالفعل فمن الظاهر أن المحسوس إنما يخرج قوة الحس التي كانت بالقوة إلى الفعل وفي هذا الانتقال لا تنفعل الحاسة ولا تستحيل وإذن فهنا نوع آخر من الحركة لأن الحركة كما ذكرنا فعل الناقص على حين أن الفعل على الإطلاق أي فعل ما بلغ تمام كما له هو شيء آخر.

الحاسة التي تثبت وتتقن تطلب وتهرب :-

فالإحساس إذن شبيه بالقول البسيط أو القصور البسيط ولكن إذا كان المحسوس لذيذاً أو مؤلماً فإن النفس تطلبه أو تتجنبه بنوع من الإيجاب أو السلف والشعور باللذة والألم هو التأثير بقوة الحس كأنها متوسط ومتصل بالحسن أو القبيح من حيث هما كذلك والمهرب والنزوع إذن من أفعال هذه القوة وبمعنى آخر قوة النزوع وقوة المهرب لا تتميز إحداهما عن الأخرى ولا تتميزان عن القوة الحس ولو أن ماهيتهما مختلفان.



العقل والنفس الفكرية:

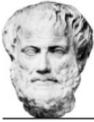
أما النفس الفكرية فإن الصور كل فيها محل الإحساسات فإذا أثبتت الحسن وفت القبيح هربت أو طلبت ولهذا لا تعقل النفس أبداً بدون صور وهذا ما يحصل مثلاً من أن الهواء يؤثر في الحدقة بصفة ما ثم تؤثر الحدقة بدورها في شيء آخر «والسمع كذلك» أما الشيء الأخير فواحد ويكون وسطاً واحداً ولو أن متعددًا في ماهيته.

أما عن المبدأ الذي به تحكم النفس بأن الحلو يختلف عن الحار فقد سبق أن بيناه ولكن يجب أن نعيد ذكره هنا: فهذا المبدأ هو شيء واحد بمعنى أن النهاية واحدة.

وحدة الحواس: يقول أرسطو: -

وهذه المحسوسات توجد في الحس المشترك الذي هو واحد بالتشكيك والعدد وتكون نسبة المحسوسات بعضها إلى بعضها الآخر في الحس كالنسبة بينها في الواقع لأن ما الفرق بين صعوبة معرفتنا كيف نحكم على المحسوسات المختلفة بالجنس وصعوبة معرفتنا كيف نحكم على الأضداد كالأبيض والأسود مثلاً؟

ولنفرض إذن أن نسبة الأبيض إلى ب الأسود هي كنسبة جـ إلى د فينتج عن هذا أن يمكن أن نعكس التناسب ونقول إن أ: جـ مثل ب: د إذا كان إذن جـ



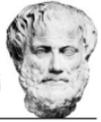
د صفتين لموضوع واحد فإنها مثل أب شىء واحد ولو أنها متميزان بالماهية والأمر كذلك في كل اثنين آخرين وينطبق الاستدلال في حالة ما إذا كان أ هو الحلوب هو الأبيض.

الصور المتحركة:-

فالقوة المفكرة تعقل إذن الصور في الأخيـلة وكما أن ما يجب طلبه وتجنـبه يتعين لهذه القوة في المحسوسات فكذلك حتى خارج الإحساس فإنها تتحرك عندما تتعلق بالصور مثال ذلك عند إدراك أن الشعلة نار فإننا نعرف بالحس المشترك عن رؤيتها تتحرك أنها تدل على اقتراب العدو ولكن بعض الأحيان الأخرى تحسب وتتروى بالأخيـلة الموجودة في النفس أو بالأحرى بالمعاني كأننا نبصرها الحوادث المستقبلية بناء على الحوادث الحاضرة وعندما تعلن أن هذا هو اللذيذ أو المؤلم عندئذ تهرب أو تطلب والأمر كذلك في العمل على العموم وأيضاً فإن الأشياء المستقلة عن العمل تعني الصادق والكاذب هي من جنس الحسن والقييح ولكن مع هذا الفارق على الأقل أن الكاذب والصادق يوجدان وجوداً مطلقاً والحسن والقييح لشخص معين.

تعقل الأمور الرياضية:-

أما ما يسمى بالمجردات فالعقل كما يعقل الأفطس: من حيث إن أفطس لا تعقله مفارقاً ولكن من حيث إن تجويف «فقط» إذا عقلناه بالفعل فإننا نعقله



بدون اللحم الذي يتحقق فيه التجويف وهكذا فإن العقل حين يعقل الأمور
المجردة يعقل الأمور الرياضية مع أنها ليست مفارقة كأنها مفارقة - وبوجه عام
العقل بالفعل هو وموضوعاته شيء واحد أما هل يمكن أن يعقل العقل شيئاً
مفارقاً دون أن يفارقه هو نفسه المقدار أو لا يمكن ذلك فهذا ما نفحص عنه
فيها بعد.



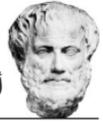
أرسطو والعقل والحاسة والتخيل

يقول أرسطو:

والآن فلنلخص ما ذكرناه عن النفس عائدين إلى القول بأن النفس من وجه هي الموجودات نفسها ذلك أن جميع الكائنات إما محسوسة وإما معقولة والعلم من أحد الوجوه هو وموضوعه شيء واحد كما أن الإحساس والمحسوس شيء واحد ولكن كيف يكون ذلك؟ هذا ما يجب أن نفحص عنه.

لا شيء في العقل لم يكن قبل ذلك في الحس :-

العلم والإحساس ينقسمان إذن بحسب موضوعاتها فالعلم بالقوة والإحساس بالقوة يقابلان الأشياء بالقوة والعلم بالفعل والإحساس بالفعل يقابلان الأشياء بالفعل وفي النفس قوة الحس وقوة العقل هما بالقوة نفس موضوعهما أحدهما المعقول بالقوة والآخر المحسوس بالقوة فبالضرورة كانت هذه القوى هي نفس موضوعاتها أو على الأقل نفس صورها أما أن تكون نفس موضوعاتها فليس هذا ممكناً لأن ليس الحجر هو الموجود في النفس بل صورته ويترتب على ذلك أن النفس شبيهة باليد ذلك أنه كما أن اليد آلة الآلات الأخرى كذلك العقل صورة لصورة والحاسة صورة للمحسوسات. ولكن



من حيث أن كما يظهر ليس هناك أي شيء يوجد مفارقاً للمقادير المحسوسة فإن المعقولات توجد في الصور المحسوسة سواء المجردات التي تسمى كذلك أم سائر الصفات المحسوسات وأحوالها ولهذا السبب من جهة فإننا في غيبة جميع الإحساسات لا نستطيع أن نتعلم أو نفهم أي شيء ومن جهة أخرى فإن عند استعمال العقل يجب أن يكون مصحوباً بالأخيلة لأن الأخيلة شبيهة بالإحساسات إلا أنها هيولي لها ومع ذلك فالتخيل يتميز عن الإثبات والنفى إذ يجب أن تتركب المعاني لتكوين الصادق أو الكاذب ولكن قد يقال فيم تختلف المعاني الأولية عن الأخيلة؟ فنقول: إن هذه المعاني الأولية بل سائر المعاني ليست أخيلة ولكنها لا يمكن أن تستغنى عنها.

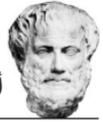


« علوم الحياة ونظرية النفس »

إن ما كتبه أرسطو في علوم الحياة وحول ماهية النفس يعد الامتداد والمنطقي والطبيعي لكتاباتة في علمي الطبيعة والفلك فبعد أن عرفنا صورة العالم الطبيعي ككل ومبادئ البحث في الطبيعة والكون العام يجدر بنا أن نتعرف على أهم ما في عالم الطبيعة من كائنات أقصد الكائنات الحية ونتساءل عن سر حياتها والفرق بينها وبين الكائنات الطبيعية أو الأشياء الطبيعية غير الحية؟

إن كل ما في الطبيعة من أشياء ينقسم في رأي أرسطو إلى ما هو طبيعي وما هو صناعي أما الطبيعي فهو من فعل الطبيعة ولا دخل للإنسان وإبداعه فيه أما الصناعي فهم ما صنعه الإنسان أو ما تدخل بإبداعه فيه.

وكل ما هو طبيعي ينقسم إلى موجودات طبيعية لا نفس لها وموجودات طبيعية تتحرك بموجب ما فيها من نفس تمثل علة حركتها ومبدأ حياتها وليس منحي ذلك أن الموجودات الطبيعية الأولى لا تتحرك فهي في الواقع تتحرك حركة طبيعية تلقائية بفعل ما فيها من مبدأ يسميه أرسطو مبدأ الطبيعة فكما أشرنا من قبل في الفصل السابق كل ما هو طبيعي يتحرك هذه الحركة التلقائية

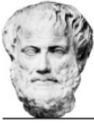


حتى العناصر المادية الأربعة هي الأخرى تتحرك بموجب ما فيها من طبيعة إما إلى أعلى وأما إلى أسفل وهي لا تغير هذه الحركة الطبيعية التلقائية إلا بعلة فسرية خارجية ولا ينبغي أن نقلل من فعل «الطبيعة» في الوجود فهي في رأي أرسطو واسعة الخيلة محدثة للنظام وصابعه وفاعله وبها قصد فهي تريد وتنظر إلى الغاية التي تريد بلوغها وهي مبدأ باطن في الموجودات الطبيعية وهي أصل نماء الكائن الطبيعي وهي ما يساعده لبلوغه الغاية من وجوده.

وإذا كنا قد درسنا في الفصل السابق الموجودات الطبيعية والعالم الطبيعي ككل فإن موضوعنا في هذا الفصل هو دراسة رؤية أرسطو للموجودات الطبيعية الحية خاصة دراسة النفس التي تميز هذه الكائنات عن غيرها من أشياء الطبيعة الأخرى.

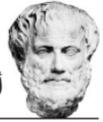
الصورة العامة لإسهام أرسطو في علوم الحياة وعلم النفس :-

لم يكن أرسطو كسابقين سواء من الطبيعيين أو المثاليين رؤيته لطبيعة النفس والكائنات الحية فهو لم ينظر إلى النفس تلك النظرة المادية الصرفة التي انتهجها الطبيعيون الذين قالوا بمادية النفس سواء ربطوا بينها وبين أحد العناصر أو اعتبروها مركباً ذرياً كالجسم وإن كان مركباً ذرياً أكثر لطفاً وحرارة كما أنه لم ينظر إليها باعتبارها كما عنه الفيثاغوريين وأفلاطون موضوعاً خاصاً مفارقاً تماماً للمادة ينتقل من جسم إلى آخر حسب المقدر لها والأفعال التي يرتكبها صاحبها لقد كان نظرة أرسطو إلى النفس نظرة علمية تجريبية محضة فهو رغم



اعترافه بخصوصية النفس وطبيعتها المستقلة شيئاً ما عن البدن إلا أن عدها «صورة» البدن ومن ثم درس أرسطو موضوع النفس دراسة علمية طبيعية بوصفها أحد الموجودات الطبيعية ومن ثم استبعد كل التصورات الأسطورية الخيالية التي سبق لأفلاطون تروييحها حول النفس أصلها وطبيعتها ومصيرها فالنفس عند أرسطو ليست من أصل مختلف عن البدن ولم تأت إليه من عالم مفارقة كما أنها لا مصير مستقل لها بل هي مع البدن وجوداً وعدماً وكان من شأن هذه الرؤية الأرسطية أن تخضع النفس للدراسة بوصفها ظاهرة طبيعية ومن ثم لا يدهشنا أن وضع شراحه من اليونانيين كتاباته في النفس ضمن مجموعة المؤلفات الطبيعية كما لا يدهشنا أنهم أطلقوا على أبحاثه النفسية المتفرقة اسم «الطبيعات الصغرى» فكل ذلك كان نتيجة إدراكهم لطبيعة دراسة أرسطو لموضوع النفس تلك الدراسة العلمية الطبيعية على هذا النحو الذي يختلط فيه البحث الفلسفي بالبحث التجريبي للوصول إلى أدق تصور ممكن لفهم طبيعة الكائنات الحية وعمل «النفس» فيها.

ومن هذه الزاوية أيضاً لا يدهشنا هذا التوجه العلمي الهائل لأرسطو في دراساته المتعددة في علوم الحياة خاصة في علوم الحيوان فهذه الدراسات التي أدهشت الباحثين في علم الأحياء في عصرنا الحاضر لما وجدوا فيها على حد تعبير سارتون من سعة أفق وتشعب في بحث الكثير من التفاصيل التي اقتحمت مجالات البحث الكبرى في علوم الحياة في العصر الحاضر قبل:



التشريح المقارن ووظائف الأعضاء وعلم الأجنة وطبائع الحيوان والتوزيع الجغرافي ونجاحه في الوصول إلى نتائج في كل هذه النواحي لا تزال إلى هذا الوقت مقبولة عن جماعة من ذوي الاطلاع والتخصص في علوم الحياة.

أقول إن هذه الدراسات التي أدهشت الباحثين العلميين في العصر الحاضر كانت نتاجاً طبيعياً لهذا النهج العلمي الرصين الذي ابتعد أرسطو منذ تأسيس اللوقيون حيث اتبع أسلوب البحث العلمي الجماعي وشكل مدرسته العلمية المتخصصة في هذه العلوم عن كوكبة متميزة من تلاميذه أولئك الذي أمدوه بكل المعلومات اللازمة للكتابة في هذه العلوم ودققوا ملاحظاتهم حول هذه الظواهر وصنفوها له بحيث كان من السهل عليه أن يخطط للكتابة في كل مجال من مجالات علوم الحياة كما تبلورت صورتها أمامه حينذاك في آن واحد.

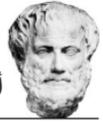
لقد كتب أرسطو «تاريخ الحيوان أو طبائع الحيوان» محتويًا على كل الملاحظات التي جمعت الواسطة تلاميذه وبتوجيه من حول علم الحيوان كما كتب De Paribusanimam «أجزاء الحيوان» وهو كتاب يتحدث عن فسيولوجيا الحيوان وليس عن تشريحه أو أجزائه كما يبدو العنوان الذي يشكله سارتون في أن يكون أرسطو هو واضعه حيث أشار أرسطو نفسه إلى موضوع هذا الكتاب في كتابه الآخر «توالد الحيوان» بأنه «أسباب الأجزاء في الحيوان» وهذه هي التسمية الأكثر دقة من التسمية التي ألفناها «أجزاء الحيوان» فالموضوع الحقيقي «لأجزاء الحيوان» هو البحث في وظائف الأعضاء وهو



لا يعالج فقط الأجزاء أي «الأطراف والأعضاء» بل يعالج ما يعرف عندنا الآن بالأنسجة حيث يبدأ بتقرير وجود ثلاثة أنواع من التركيب: الأول النوع الجسدي الخالص والثاني الأجزاء المتجانسة «أو الأنسجة» والثالث الأجزاء غير المتجانسة أو الأعضاء والأنسجة فيه ستة هي: الدم والدهون والنخاع والمخ واللحم والعظم وقد استكمل أرسطو أبحاثه في فسيولوجيا الحيوان في كتاب آخر يشير إليه سارتون بعنوان «حركة الحيوان» أو «مشي الحيوان» حيث يبين فيه كيف هيئت أجساد الحيوان لتحقيق الغايات المقصودة منها.

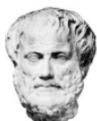
ولا يغيبين عن بالنا أن هذه المؤلفات في علم الأحياء عامة وعلوم الحيوان خاصة قد تداخلت وارتبطت تماماً بما كتبه أرسطو في علم النفس فإن كانت المؤلفات السابقة تتحدث عن «مادة» الكائنات الحية أي أجسامها فإن كتاب «النفس» Deanima يعالج «صورة» الجسم أما ما سمي بالطبيعات الصغرى أو الأبحاث الطبيعية الصغرى «في الحس والمحسوس» في «الذاكرة والتذكر» في «النوم واليقظة» «في الأحلام» «في طول الحياة وقصرها» «في الشباب والشيوخوخة» «في النفس» و «في الموت والحياة» فهي تقف بين هذا وذاك حيث إنها تعالج الوظائف المشتركة بين الجسم والنفس بين المادة والصورة وغيرها من الوظائف غير المشتركة بالخاصة بالكائنات الحية خاصة في الإنسان والحيوان.

وبالطبع فإن هذه الكائنات ذات الصفة الموسوعية التي تحاول فتح كل



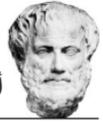
آفاق البحث العلمي حول أي موضوع بهذه الستة وذلك الشمول الطامح إلى معرفة خصائص كل شيء والإمام به بقدر ما ساهمت في تمكين أرسطو من فهم أشمل وأدق وأرقى للعالم الطبيعي خاصة ما يخص كائناته الحية بقدر ما أوقعته في خطأ سواء فيما يتعلق بتصوره للعالم الطبيعي ككل في كتاباته الطبيعية والفلكية والتي عدها البعض «سلسلة من الأخطاء فيها الكثير من السخف والحمق» أو بمعنى أدق أصبح الكثير منها خارج الصورة الحية لتاريخ العلم المعاصر بدءاً من اعتباره أن الأرض هي مركز هذا العالم الطبيعي وانتهاء بقصوره لعالمي ما فوق فلك القمر وما تحت فلك القمر أو فيما يتعلق بتصويراته وتفسيراته شديدة العمومية في بعض جوانب حديثة في علوم الحياة خاصة فيما يتعلق بأرائه الخاصة والمخالفة للحقائق العلمية الحديثة حول المخ والقلب إذ يكفي الإشارة إلى أنه مثلاً اعتبر أن القلب مقر العقل وأن وظيفة المخ لا تعدو تبريد القلب بما يفرزه من البلغم وأن يمنع زيادة درجة حرارته عن اللازم.

والحقيقة أن هذه الأخطاء التي أشرنا إليها وغيرها لم تكن لتقلل بأي شكل من هذا الجهد الموسوعي الخارق لفهم العالم الطبيعي وكائناته بصورة أكثر علمية وباستخدام مناهج أكثر اتجاهاً نحو التجريبية بمعناها الحديث كل ما هنالك أن أرسطو قد استند في الأساس على الملاحظة الحسية البحتة ولم يكن لديه من الآلات ولا من الإمكانيات المادية ما يساعده على تخطي كل ما يأتيه عن طريق الحواس المجردة بما في ذلك من إمكانية الوقوع في الخطأ المعروف



عن الحواس عموماً وبالطبع فلم يكن بمقدور العقل هنا أن يصلح كل أخطاء الحواس خاصة فيما لا يمكن أن يقع تحت الخبرة المباشرة كالعالم السماوي بما فيه من نجوم وكواكب لم يتمكن الإنسان من الوصول إليها إلا في العصر الحاضر كما لم يكن بمقدور أرسطو فهم التركيب الدقيق لأعضاء الحيوان والإنسان ومعرفة خبايا هذه الأعضاء وعلاقتها التشريحية الدقيقة ببعضها البعض فهذا كان يتطلب خبرة تجريبية أكثر وخبرة تقنين أكثر تقدماً لم يكن يملكها أرسطو أو ربما لم يطلع عليها لدى من أمكنهم إدراكها سواء في الشرق القديم خاصة في مصر التي كانت نهضتها العلمية في مختلف جوانب الطب والصيدلة والكيمياء وعلوم الحياة خافية على أرسطو ولم يهتم بالاطلاع عليها كما أنه أيضاً لم يستفد إلى حد كبير من آراء القمايون الطبية وكذلك من الكتابات الابقرافية التي اشتملت على آراء عميقة في هذا المجال.

على أي حال فإن علينا الآن أن نتقدم في معرفة آراء أرسطو في طبيعة النفس وفي صورها في الكائنات الحية المختلفة فربما كانت هذه الآراء هي الدالة بحق على عبقرية أرسطو في دراسته في علم الحياة وعلم النفس أكثر من غيرها وعلى جرأته على اقتحام موضوعات دقيقة لم يكن في بمقدور السابقين عليه اقتحامها.



تعريف النفس عند أرسطو

قبل أن يخوض أرسطو في عرض تعريفه للنفس استعرض كعادته الآراء التي قيلت من قبل في ذات الموضوع وانتقدها وفي ضوء هذه الانتقادات فإكتشف شيئاً فشيئاً ملامح رؤيته الخاصة للنفس كما عرضها بدءاً من الكتاب الثاني من كتاب «النفس».

لقد أجمع السابقون - فيما يقول أرسطو - مع صفتين أساسيتين فيما يختص بالنفس هما: الحركة والإحساس فالجميع اتفقوا على أن النفس هي علة الحركة رغم اختلافهم في توصيف هذه الكيفية تبعاً لمذاهبهم الفلسفية في تركيب النفس وفي مدى صلتها بالبدر كما أنهم اتفقوا على أنها كذلك هي علة الإحساس لدى الحيوان والإنسان.

وقد ناقش أرسطو آراء هؤلاء السابقين بالتفصيل ورغم أنه اتفق معهم في أن النفس هي علة الحركة وهي كذلك علة الإحساس إلا أنه انتقدهم بشدة في كيفية تصورهم لكونهم علة الحركة وهل هي علة الحركة اعتبارها هي ذاتها متحركة وما نوع حركتها هل هي بالذات أم بالعرض؟ وانتهى إلى أن التفسير الوحيد لذلك أنها «يمكن أن تتحرك بالعرض» إذ ليس من الضروري أن

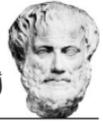


يكون المحرك متحركاً.. أن الشيء يتحرك بشيء آخر إذا كان المتحرك موجوداً في شيء يتحرك كالبحارة مثلاً الذين لا يتحركون كما تتحرك السفينة فهذه تتحرك بنفسها ويتحرك البحارة لأنهم موجودون على ظهر السفينة المتحركة وعلى ذلك رأى أرسطو عموماً أن الموضوع الذي تحل فيه «النفس» يمكن أن يتحرك وأن يتحرك بالنفس دون أن تتحرك هي بذاتها أي نوع من أنواع الحركة المعروفة فهي علة كل هذه الحركات لكنها هي ذاتها لا تتحرك نظراً لأنها لو كانت متحركة لكان معنى ذلك أن طبيعتها من طبيعة المتحرك أي الجسم وهذا غير صحيح لأن النفس عموماً عند أرسطو ليست مادية وليست جسماً وإن كانت «صورة» الجسم.

وقد انتقد أرسطو كل من قال بأن النفس مركبة سواء من العناصر أو من الذرات وخص بالذكر أنبادوقليس الذي تصور أن النفس وموضوعها شيء واحد وأنها مركبة بالتالي من العناصر وأن إدراكها يتم من خلال أن الشبيه يدرك الشبيه فبالأرض نرى الأرض وبالماء نرى الماء وبالأثير نعرف الأثير الإلهي.

لقد توقف أرسطو كثيراً أمام هذه النظرية لأنبادوقليس وانتقدها عدة انتقادات منها: -

1- إن العناصر ليست هي موضوع النفس الوحيدة فالنفس تعرف أشياء أخرى كثيرة أو قل إنها تعرف عدداً لا يحصى من الأشياء.



2 - وإذا ما سلمنا بأن النفس قادرة على معرفة وإدراك العناصر المكونة لجميع المركبات من العناصر فيأتي شيء يدرك المركب ذاته أو يعرف مثلاً ما الإله أو الإنسان أو اللحم أو العظم أو أي مركب آخر.

3 - وإذا ما سلمنا بأن الشبيه من العناصر في النفس ينفعل بالشبيه من العناصر في الأشياء فلن يوجد شيء يعرف العظم أو الإنسان إلا إذا كان أيضاً موجودين في النفس ولسنا فيما يقول أرسطو في حاجة إلى بيان ما في ذلك من استحالة لأن أحداً لا يجسر على القول بوجود الحجر أو الإنسان في النفس والأمر كذلك في الخير والشر وسائر الأشياء.

4 - إن ربط تكون النفس من العناصر بإدراك نظائرها في العالم الخارجي فإن أكثر الموجودات جهلاً فيما يقول أرسطو سيكون هو الإله لأنه الوحيد الذي لا يعرف أحد العناصر بوصفه ليس مركباً مادياً ولا يوجد به العناصر التي تدرك العناصر.

وقد انتهى أرسطو إجمالاً إلى أفكار رأي القائلين بهادية النفس وبأنها متحركة بقوله يظهر جلياً أن المعرفة ليست من صفات النفس من حيث إنها مركبة من العناصر وليس من الصواب كذلك ولا من الحق أن نزع بأن النفس متحركة.

إن النفس إذن عند أرسطو هي علة الحركة رغم أنها ليست متحركة بذاتها



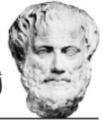
كما أنها علة المعرفة رغم أنها ليست مادية وليست مركبة من العناصر فالنفس إذن واحدة وهي «المبدأ الصوري الذي يحفظ وحدة الجسم لأنها إذا ما فارقت تبدد الجسم وفسد» وها هو أرسطو يقترب بذلك من تقديم تعريفه الخاص للنفس فهي «الصورة التي تمثل الكمال الأول emtellichia للجسم» وهي بالضرورة «جوهر بمعنى أنها صورة جسم طبيعي ذي حياة بالقوة»

فماذا يعني أرسطو تحديداً بهذا التعريف للنفس بأنها «صورة أو كمال أول»

للجسم الطبيعي ذي الحياة بالقوة؟

لقد اختص أرسطو النفس بداية بأنها ما يحول الحياة بالقوة في الجسم الطبيعي إلى حياة بالفعل وهذا هو ببساطة ما قصده بأن النفس هي صورة الجسم فالنفس صورة الجسم الطبيعي نظراً لأنها ما يحول الحياة بالقوة فيه إلى حياة بالفعل.

لقد شرح أرسطو نفسه هذه الصيغة التي عرف بها النفس اصطلاحاً بعد آخر فالصورة باعتبارها الكمال الأول أو الانتخليا باليونانية يوضحها بقوله: إن «الكمال الأول يقال على معنيين إما كالعلم وإما استعمال العلم.. فهو تارة كالعلم وتارة كاستعمال العلم.. ويظهرها هنا أن النفس كمال أول كالعلم لأن النوم كاليقظة يقتضيان وجود النفس من حيث إن اليقظة شيء شبيه باستعمال العلم والنوم شبيه بوجود العلم دون استعماله ولما كان العلم في الفرد متقدماً في الشئ على استعمال العلم لهذا كانت النفس كمالاً أول»



والمقصود هنا أننا ينبغي أن نميز بين وجود النفس في الجسم بداية وبين استخدام الجسم لها أو عملها فيه، فالنفس صورة الجسم الحي وكما له سواء كان في حال النوم أو حال اليقظة.

لقد توقف أرسطو في هذا التعريف عند «كمال أول» نظراً لأنه أراد أن نعي هذا التمييز جيداً لفرق كبير بين وجود النفس في الجسم دون أن تؤدي وظيفة معينة فيه وبين أن توجد وتؤدي الوظائف الموكولة لها في هذا الجسم إن النفس بما هي كذلك «أي بوصفها كمالاً أول» واحدة في كل الكائنات الحية وإذا ما بدأت في ممارسة وظائفها بدت صوراً مختلفة لها فمنها ما يقتصر وجوده على النبات ومنها ما يوجد لدى الحيوانات ومنها ما يقتصر وجوده على الإنسان. كما سيتضح فيما بعد حين الحديث عنه.

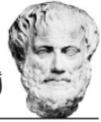
قوى النفس أو وظائفها في الكائنات الحية المختلفة:

أما عن ضرورة وجودها في «جسم طبيعي» فهذا أمر واضح إذ يستحيل وجودها في جسم صناعي غير قابل للحياة بالطبيعة كما أشرنا في الفصل السابق وقد أضاف أرسطو إلى ما سبق قوله بأن هذا الجسم الطبيعي لا بد أن يكون مكتمل الأعضاء أو الآلات كما فضل المترجم العربي القديم فهذا الجسم الطبيعي لا بد أن يتوافر فيه لكي تحل فيه النفس شرطان: أحدهما: أن يكون آلياً أي يكون به الأعضاء الضرورية اللازمة للحياة وثانيهما: أن تتوافر فيه الشروط الفسيولوجية للحياة وهذا ما أشار إليه بقوله «ذي الحياة بالقوة إذ قد تكون



الأعضاء ميتة وغير قابلة للحياة» وبهذا يكتمل التعريف الأرسطي للنفس كما
نحصرن الفلاسفة والشرح العرب كالآتي:

إنها «كما أول لجسم طبيعي إلى ذي حياة بالقوة» فالنفس إذن صورة الجسم
ومبدأ وحدته ومبدأ حركته مع التأكيد على أنها كذلك كما قلنا في كل الأجسام
الحية دون أن نتطرق إلى ما تقوم به من وظائف في هذه الكائنات لأنه بهذه
الوظائف التي تقوم بها النفس ستتمايز هذه الكائنات.



قوى النفس في الكائنات الحية

عند أرسطو

يدرك أرسطو في كتاباته العلمية أن ثمة درجات أو تدرج في الكائنات الطبيعية بوجه عام ومن ثم فثمة مثل هذا التدرج كذلك في الكائنات الحية فهي هو يقول في تاريخ الحيوان: تتدرج الطبيعة شيئاً فشيئاً مما لا حياة فيه إلى حياة الحيوان بطريقة تجعل من المستحيل تقرير الحد الفاصل بالضبط ولا في أي جانب من جانبي هذا الخط يمكن أن توجد الصورة المتوسطة فالنبات في سلم الترقى يأتي بعد الجماد وتختلف النباتات تبعاً لنصيبتها من الحيوية الظاهرة وبالحملة فكل جنس من النبات مع خلوه من الحياة إذا قيس بالحيوان فيه الحياة إذا قيس إلى وحدات جسدية أخرى وفي الحقيقة.. يوجد في النبات ترقى مستمر نحو الحيوان وفي البحر مخلوقات معينة يجد الإنسان نفسه حيا لها في حيرة لا يدري أهي من الحيوان أم من النبات فمثلاً بعض هذه المخلوقات مثبت في مكانه وفي كثير من الحالات يغني إذا هو انتزع من مكانه فالبنا Pimm ثابتة جذورها في بقعة معينة والسولين «نوع من ذوات الأصداف» لا يعيش إذا نزع

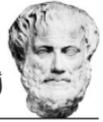


من مكمنه وبالإجمال فجنس ذوات الأصداف أقرب شَبهاً بالنبات إذا قورن بالحيوانات القادرة على الحركة.

أما من حيث الحس فمن الحيوان ما لا يبدو فيه أي أثر له ومنه ما فيه أثر له غير بين ثم إن مادة هذه الكائنات المتوسطة بين الجنسين تشبه اللحم.. وهكذا في كل سلم الترقى في الحيوان يوجه تدرجاً في مقدار الحيوية والقدرة على الحركة.. وما قيل في الحس يصدق شىء من قبلية على أساليب الحياة فالنباتات التي تنجم من البذر يبدو أن الوظيفة الوحيدة بها هي تكاثر نوعها لا غير ومثلها في ذلك مثل بعض الحيوانات فوظيفة التكاثر إذن مشتركة فيها جميعاً.

فإذا أضفنا الحس فإن حياتها تختلف بالنسبة للعلاقات الجنسية تبعاً لتباين درجة اللذة الناتجة عنها وكذلك بالنسبة لطرق الولادة وأساليب تنشئتها لصغارها..

إن هذا النص قد يبدو منه في رأى البعض إيمان أرسطو أو على الأقل إدراكه لنظرية التطور الداروينية ولكن الحقيقية أن سلم الترقى الطبيعي هذا عن أرسطو لا يستلزم فيما يقول سارتون الانطواء على معنى التطور فهذا السلم يمكن تصوره مستقراً على حالة واحدة بحيث لا يتعارض مع كونه كل جنس من الأجناس قائماً بذاته. إن أرسطو ممن يؤمنون بالتمايز بين الأنواع والأجناس في كائنات العالم الطبيعي وإذا كان ثمة اعتقاد جازم لديه بأن هذا التمايز لا ينفى أن تدرجاً من الأدنى إلى الأعلى أو من الأعلى إلى الأدنى يقوم أو



يظهر فيها تقوم به هذه الكائنات من وظائف.

ويتضح ذلك تماماً من حديثه أيضاً عن قوى النفس في الكائنات الحية فالنفس في ذاتها واحدة وأن بدت قواها ووظائفها مختلفة في الكائنات المختلفة التي تتدرج أيضاً من الأدنى التي تمارس فيه النفس ووظائف ثلاث «التغذي والنمو والتوالد» وهو النبات إلى الحيوان التي تمارس فيه النفس بالإضافة إلى تلك الوظائف الثلاث ووظيفة رابعة هي الإحساس إلى الأعلى وهو الإنسان الذي تمارس فيه النفس بالإضافة لتلك الوظائف الأربع ووظيفة خامسة هي التفكير والتأمل وقد عبر أرسطو عن ذلك أيضاً بعبارة صريحة وواضحة في كتاب «النفس» يقول فيها:

«توجد جميع قوى النفس «أي وظائفها» في بعض الكائنات.. وليس في بعض الكائنات إلا بعض القوى وبعضها الثالث ليس فيه إلا قوة واحدة فقط والقوى هي: القوة الغازية والنزوعية والحساسة والمحركة والمفكرة وليس في النبات إلا القوة الغازية فقط وفي بعض الكائنات هذه القوة وكذلك قوة الحس وإذا كانت عندها قوة الحس فعندها كذلك القوة النزوعية لأن النزوع يشمل الشوق والغضب والإرادة ولكن الحيوانات عندها جميعاً إحدى الحواس على الأقل نعني اللمس.. أما أنها هل عندها تخيل فأمر يشك فيه وسوف تفحص عن ذلك فيما بعد وعند بعض الحيوان أيضاً قوة الحركة وعن بعضها الآخر قوة التفكير والعقل كالإنسان مثلاً وأي كائن حي آخر إن وجد يكون من طبيعة



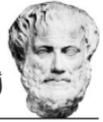
مشابهة له أو أرقى منه..

إن الكائنات ذات النفس إذن هي من جنس واحد هو بوجه عام الكائنات الحية وإن تمايزت أنواعها بما تقوم به النفس من وظائف تتدرج من الأدنى إلى الأرقى من النبات إلى الحيوانات إلى أرقاها وهو الإنسان لقد كان حديث أرسطو هنا في كتابه عن قوى النفس لا عن أنواع منفصلة انفصلاً مطلقاً وعادة ما يكون الحديث عن القوة الأدنى تمهيداً للحديث عن القوة الأعلى وهكذا يفهم الأعلى بالأدنى والأدنى بالأعلى فالنفس هي ما يميز الجنس الحي عموماً وإن تمايزت هذه الكائنات بما تمارسه من وظائف في حياتها.

«1» القوة الغازية «النفس في النبات»:

إن النفس تبدأ ممارسة وظائفها في الكائنات الحية جميعاً من وظيفة التغذي «فالنفس الغازية».. هي أول قوى النفس وأهمها وبها توجد الحياة لجميع الكائنات ولها وظيفتان: التوليد والتغذي لأن أقرب الوظائف من الطبيعة لكل كائن حي كامل ليس بناقص.. هو أن يخلق كائناً آخر شبيهاً بالحيوان حيواناً آخر والنبات نباتاً آخر بحيث يشارك في الأربي والإلهي بحسب طاقته لأن هذا هو موضوع النزوع لجميع الكائنات وغاية نشاطها الطبيعي.

إذن أولى وظائف النفس في الكائن الحي بدءاً من النبات هو التغذي فالشئ لا يزيد ولا ينقص بالطبع إلا إذا تغذى ولا شئ يتغذى إلا إذا كان



حياً ومبدأ الحياة كما قلنا هو النفس ولكن ماذا يعني أرسطو بالتغذي؟

إن ثمة نظريات سابقة على أرسطو فسرت عملية التغذية على أنها مجرد زيادة كمية مادية تظراً على الكائن وقد ركز على عرض وفقد نظريتين منهم إحداهما عن أنبادوقليس وديمقريطس وتذهب إلى أن الشبيه يتغذى كما يتولد عن الشبيه والأخرى عند أنكساجوراس وتذهب إلى أن الضد يتغذى بالضد ما دام لا ينفعل الشبيه بالشبيه والأمر عند أرسطو لا هذا ولا ذاك إذ ماذا نعني بالغذاء؟

هل هو ما يضاف إلى المغتذى آخر الأمر أم أول الأمر؟ فهناك فرق بينهما فإن كان كلاهما غذاء إلا أن أحدهما لم يهضم وهضم الآخر فالغذاء يمكن أن يقال على المعينين: لأن من حيث إن الغذاء لم يهضم فالضد يتغذى بالضد ولكن من حيث إن الغذاء قد هضم فالشبيه يتغذى بالشبيه.

وهذه إشارة واضحة من أرسطو إلى أن النفس تقوم بتحويل الضد إلى شبيهه فالنبات يتغذى على التربة المزروع فيها وهي ضده فعلاً لكن النفس تحول هذه المادة الضد فعلاً إلى مادة شبيهة بمادة النبات تفسير إن هذه إشارة إلى ما يسمى الآن بعملية «التمثيل الغذائي» فانت تتغذى على برتقالة وهي شيء مختلف عن مادة جسمك لكن ثمة ما يحول هذه المادة المختلفة إلى دم شبيه بما يجري داخل الجسم ويغذيه وبه ينمو ويكبر.

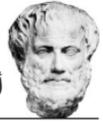


إن التغذي إذن يعقبه زيادة حجم الكائن وهي عملية النمو وهذا النمو ليس عملية زيادة آلية ميكانيكية بحتة بل هو نمو في اتجاهات محددة وإلى حد معين كما أن التغذي والنمو يتحقق بهما وعنهما عملية التوالد التي أشار إليها أرسطو في نصه السابق بوصفها عملية ضرورية لكمال الكائنات الحي بحيث يتوالد عن غيره من نفس النوع فيشارك بذلك «في الأزلي الإلهي بحسب طاقته».

إن كل ما في الكائن الحي إذن بدءاً من النبات يسير نحو تحقيق غاية طبيعية وهذه الغاية الطبيعية هي قدرته على الحفاظ على نوعه رغم فناء جزئياته وفساد أفراده.

«2» القوة الحساسة «النفس في الحيوان»:

إن القوة الحساسة هي ما يميز الحيوان عن النبات وليس معنى ذلك أن الحيوان لا يتغذى ولا ينمو ولا يتوالد بل على العكس. والإحساس ينشأ لدى الحيوان عما يعرض من حركة وانفعال ويفسره السابقون كتفسيرهم للتغذي على أنه مجرد عملية مادية وباعتباره ضرباً من الاستحالة فهو إما فعال الشبيه بالشبيه أو انفعال الضد بالضد وقد رفض أرسطو النظريتين معاً. فالإحساس عنده مثله مثل التغذي انفعال لكن ليس انفعالاً مادياً إنما هو انفعال بصورة المحسوس فثمة إحساس بالفعل كذلك في المحسوس منه ما بالقوة ومنه ما هو بالفعل فالحس يظل بالقوة كالوقود الذي لا يشتعل بنفسه إلا أن يأتي ما



يشعله وهو هنا المحسوسات وكذلك يظل المحسوس محسوساً بالقوة حتى يأتي العضو الحساس لينفعل به فيتم الإحساس بفعل تحول الضد إلى شبيه وذلك عبر عملية تغيير كفي يسري على العضو الحساس فالعين لا تنفعل بمادة المحسوس بل بصورته وبلونه وهذا الانفعال الذي هو عملية الإحساس يتم بشروط حددها أرسطو أشرنا إليها في الفصل الخاص بنظرية المعرفة وأبرز هذه الشروط هو شرط وجود ذلك الوسط المشف «أي الضوء» وشروط مراعاة حد الإحساس وكذلك الدرجة المناسبة لتوافر هذا الوسط.

وما ينطبق على البصر والمرئي ينطبق على السمع والصوت حيث يكون الوسط هو الهواء ولا بد من مراعاة شروط الإحساس الذي هو هنا السمع فلا سمع بدون صوت ولا صوت إلا برنين من القارع على المقروع وثمة شروط للرنين والسمع «إذ إن الجسم يكون رناناً إذا كان قادراً على تحريك كتلة من الهواء تظل واحدة ومتصلة حتى تبلغ عضو السمع.

ويناقش أرسطو هنا قضايا أكثر اتساعاً من مجرد المعرفة أو الإحساس الذي يتلقاه عضو السمع حيث يناقش علاقة النفس بالسمع وكيف يمكننا سماع صوت النفس وصوت الهواء المتنفس الذي يمر بالقصبه الهوائية وكيف أننا لا نستطيع الكلام في حالة الشهيق أو الزفير ويوضح علة ذلك.

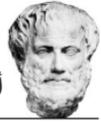
أما بخصوص الشم والرائحة فهو يرى أن الإحساس الشمي ليس دقيقاً عندئذ بل هو أضعف منه في كثير من الحيوان ذلك أن الإنسان يحس بالروائح



بضعف ولا يدرك أي رائحة ليست مصحوبة بالألم وباللذة ويقارن بين الشم والذوق ويؤكد «أن الشم يشبه الذوق وأنه كذلك تشبه أنواع الطعوم والمشموحات ومع ذلك يوضح أن حاسة الذوق فينا أكثر دقة لأن الذوق لمس ما واللمس في الإنسان هو أكثر الحواس دقة أما الحواس الأخرى فإنها أضعف في الإنسان من كثير من الحيوانات.

ويتهي في هذه المقارنة بين الحواس لدى الإنسان والحيوان بملاحظة لا ندري مدى دقتها ومدى أهميتها هي تلك التي يقول فيها إن الإنسان «من جهة دقة اللمس أعلى بكثير من سائر الحيوانات وهذا هو السبب في أنه أعدل أنواع الحيوانات والدليل على ذلك أننا إذا نظرنا إلى النوع الإنساني رأينا أن الفضل يرجع إلى هذا العضو من الحس لا إلى شيء غيره في أن بعض الناس أفضل موهبة من بعضهم الآخر لأن ذوي اللحم الغليظ أقل ذكاء من ذوي اللحم الرقيق».

فهل صحيح أن دقة اللمس في الإنسان هو ما جعل الإنسان «أعدل أنواع الحيوان»؟ وهل حاسة اللمس وتفاوتها عند ذوي اللحم الغليظ عن ذوي اللحم الرقيق هي السبب في أن ذوي اللحم الرقيق أكثر ذكاء؟ وهل صحيح أن ذوي اللحم الغليظ أقل ذكاء من ذوي اللحم الرقيق؟ إن هذه وغيرها تساؤلات لا نستطيع الإجابة عنها إلا بموجب أبحاث علمية متخصصة فكيف تسنى لأرسطو الوصول إلى هذه النتائج من مجرد ملاحظات ربما كانت



عابرة حول بعض الأشخاص ممن عرفهم.

على أي حال فأرسطو يرى أيضاً بالنسبة لهذه الحاسة نفس ما رآه في الحواس السابقة من حيث وجود الوسط فالشم أيضاً «يحصل بالمتوسط» وهو إما الهواء أو الماء لأن الحيوانات المائية سواء ذوات الدم أو ما لا دم لها يظهر أنها تدرك الرائحة كالحيوانات التي تعيش في الهواء ذلك أن بعضها يتجه من بعيد نحو طعامها عندما تنجذب إليه بالرائحة.. وإدراك الرائحة يحصل في جميع الحيوانات بشكل واحد ما عدا الإنسان فإنه لا يستطيع أن يشم إلا إذا تنفس الهواء.

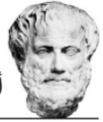
أما حاسة الذوق فأداتها اللسان وموضوعها الطعوم وفي رأي أرسطو «أن المطعوم نوع من الملموس» وهذا دليل في رأيه على أن الإحساس هنا لا يتم في وجود متوسط كالهواء أو الماء مثل المرئيات والمسموعات. إن إحساس الذوق يتم بامتزاج المطعوم بالرطب وربما كانت رطوبة اللسان هذه هي ذلك الوسط الذي تجاهله أرسطو هنا وإن كان قد أشار إلى ذلك بقوله من الضروري أن يترطب «اللسان» دون أن يفسد جوهره مع ألا يكون رطباً بالفعل.. فاللسان لا يدرك الطعم إذا كان شديد اليبوسة أو شديد الرطوبة فهذه إشارة منه إلى أن رطوبة اللسان هي هذا الوسط الذي يتم فيه الإدراك الذوقي كما أن درجة هذه الرطوبة لا بد أن تكون متوسطة فلا إفراط فيها ولا تفريط لأن كليهما معناه انعدام الإحساس بالطعم من جانب اللسان.



أما آخر الحواس حاسة اللمس التي اعتبرها أرسطو من قبل أدق الحواس عند الإنسان فقد أصابته حيرة في توصيفها إذ تساءل أهنالك حواس كثيرة لللمس أم حاسة واحدة؟ وما هو عضو اللمس هل هو اللحم أو ما يشبهه؟ أم اللحم فقط مجرد متوسط وأن عضو الحس الحقيقي عضو باطن آخر؟

وبعد محاولات عديدة للتأمل والفهم انتهى إلى أن «الإدراك في الملموسات لا يحدث بتأثير المتوسط بل في نفس الوقت مع المتوسط كما يضرب الإنسان على درعه فليس الدرع عند ضربه هو الذي يضرب الإنسان بل وقعت الضربتان في وقت معاً ويبدو هنا أن أميل إلى اعتبار السطح الخارجي للجلد هو الذي يقوم بدور الوسط حيث إنه يعتبر أن الإحساس بالملموس لا يتم إلا داخل الجسم فهو يقول: «لا يحدث الإحساس بمماسة عضو اللمس بالمحسوس كما إذا وضع مثلاً جسم أبيض على سطح معين مما يدل بوضوح على أن ما يدرك الملموس هو من داخل» لأن بهذه السبيل فقط نحس بهذه الحاسة.. ولما كن لا ندرك ما يوضع على عضو الحس وندرك ما يوضع على اللحم فينتج عن ذلك أن اللحم هو المتوسط لقوة اللمس.

إن هذه الحواس الخمس كما قلنا في الحديث عن نظرية المعرفة تنفعل بالمحسوس لكنها لا تدركه والحس المشترك هو الذي يتلقى كل هذه الانطباعات الحسية من الحواس ويميزها ويميز بين درجات كل واحدة من المحسوسات وفضلاً عن ذلك فهو ما به يتم إدراك الموضوعات المشتركة بين



الإحساسات وكذلك فيه يتم - كما أكد أرسطو - إدراك الإدراك الحس ذاته أو الإحساس بالإحساس على حد تعبير شارحه ابن رشد.

ويستند فعلاً التذكر والتخيل على هذه الإحساسات فالأولى تستند عليها من حيث إنها استدعاء لإحساسات ماضية والثانية تستند عليها من حيث إنها أصبحت صوراً متخيلة أقرب إلى الكذب منها إلى الصواب.

«3» القوة العاقلة «النفس في الإنسان»: -

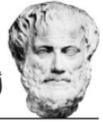
إن أهم ما استهدفه أرسطو من دراسة النفس في الكائنات الحية عامة وفي الإنسان على وجه الخصوص هو دراسة التفكير الإنساني بوصفه أعلى وأهم وظيفة يمكن أن يقوم بها الإنسان في هذا الوجود ولم يكن ذلك فقط في كتابنا هذا «كتاب النفس» بل اشتركت كل مؤلفاته في تأكيد ذلك منذ مؤلفاته المبكرة خذ مثلاً قوله في دعوة للفلسفة: إن آخر ما ينشأ من ملكات النفس هو ملكة العقل وإذا سلمنا بهذا يتبين لنا أن ملكة العقل بحسب طبيعتها هي هدفنا وأن استخدامها هو الغاية الأخيرة التي من أجلها نشأنا ويقول في موضع آخر من نفس الكتاب أن آخر شيء يوجد من أجل العقل وأن فاعلية العقل هي التفكير والعقل هو أرفع الأمور قيمة في مجال النفس ومن أجله وحده يكون كل شيء والإنسان إذا حرم العقل وحده تحول إلى حيوان إما إذا تحرر من غير المعقول وتمسك بالعقل فقد صار شبيهاً بالإله.



ولقد كان هم أرسطو الأول منذ بداية كتاب النفس هو نقد ما رآه القدماء خاصة أنكساجوراس وديمقريطس في قولهما بأن العقل نوع من الحس أو أن قوة جسمية بحجة أن يدرك الأجسام. ونفي ذلك مؤكداً أن التعقل والحس ليسا واحداً وإلا لكانت جميع الحيوانات التي تمتلك الإحساس تعقل طالما أنها تحس.

وبناء عليه فقد ركز أرسطو في دراسته للعقل تفصيلاً في الكتاب الثاني من «النفس» صراحة على بيان مفارقة العقل بما هو كذلك للجسم إذ يجب أن يكون العقل بالضرورة من حيث إن يعقل جميع الأشياء غير ممتزج ومن ثم أوضح الفروق العديدة بين الحس والعقل بحسب ما أوضحنا في الحديث من نظرية المعرفة لديه.

والحقيقة التي يجب أن نعيها أن أرسطو يصر على أن التفكير رغم حاجته لاستخدام الصور الحسية والمتخيلة إلا أنه ليس هو مجرد انفعال أو ناقل لهذه الصور فالتفكير يعني في الأساس فهم معاني هذه الصور الحسية أو المتخيلة والوصول من خلالها إلى معرفة دقيقة بالبناء الحقيقي للعالم إن التفكير أو التعقل بأوسع معانيه عند أرسطو يتضمن جميع الأفعال المعرفية المستقلة عن التأثير الفعلي للمحسوس أي صورة الذاكرة والظنون وأحكام العلم على السواء إذ يقر أرسطو بأن طرفي سلم المعرفة يتصدرهما حرس لا يمكن أن يجانب الحقيقة على حد تعبير برييه ففي الطرف الأسفل للحدس بالمحسوس



الخاص عن طريق الإحساس وفي أعلاه الحدس العقلي بالماهيات المجردة وبين الطرفين يمتد كل الباقي أي كل ما هو قابل لأن يكون صادقاً أو كاذباً صحيحاً أو خاطئاً أي كل قضية تنسب محمولاً إلى موضوع ماضياً أو حاضراً أو مستقبلاً.

وبالطبع فليس معنى ذلك أن أرسطو يفكر بأهمية الإحساس والخبرات الحسية بالنسبة للعقل فأرسطو في ثنايا تفسيره لكيفية الإدراك العقلي استعان بذلك التمييز الشهير لديه بين وجود العقل بالقوة ووجوده بالفعل فقال: «إننا نميز من جهة العقل الذي يشبه الهيوولي لأن يصبح جميع المعقولات ومن جهة أخرى العقل الذي يشبه العلة الفاعلة لأن يحدثها جميعاً كأنه حال شبيه بالضوء لأنه بوجه ما الضوء أيضاً يحيل الألوان بالقوة إلى ألوان بالفعل.

وواضح من هذا التمييز أنه يرى أن القدرة على التفكير في الأفراد تسبق التفكير العقلي لديهم فعقل الفرد يشبه الصفحة البيضاء التي لم يكتب عليها شيء من البداية وعلى هذه الصفحة تحفظ الأفكار المعنية أولاً بالفكر نفسه وهذا يعني أنه بالفكر وليس فقط بالإدراك الحسي تتكون الأفكار.

فالأفكار ما هي في بدايتها الزمانية إلا انطباعات حسية انطبعت على صفحة العقل «العقل بالقوة - من حيث هو هيوولاني» وحينما تنجح القوة الفاعلة من العقل في تجريدتها يتلقفها ذات العقل الهيوولاني فيتحول من عقل مدرك بالقوة إلى عقل مدرك بالفعل وعلى ذلك فهذا التمييز بين عقل بالقوة

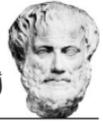


وعقل بالفعل إنما هو إشارة ذات دلالات عديدة أولاً: إلى كيفية تمام عملية الإدراك العقلي وثانياً: إلى التمييز بين درجات المعرفة العقلية فثمة معرفة عقلية استقرائية تستند على ما يأتينا من الخبرات الحسية وتحليلها والانتقال منها إلى تقرير الكلي وثمة معرفة عقلية حسية لا تستند على تلك الخبرات الحسية حيث إن موضوعها لا يتيسر وقوعه في هذه الخبرة وهو لا يمكن أن يقع في إطارها مثل موضوعات ما وراء هذا العالم الطبيعي المحسوس وعلى رأسها بالطبع الإله وثالثاً: إلى بيان أن العقل بما هو كذلك إنما هو مفارق غير خاضع لقوانين المادة ومن ثم يمكنه من خلال مفارقتة للمادة وإدراك المفارقة أي الإله أن يكتسب صفات الخلود والأزلية بحسب ما أوضحنا تفصيلاً في حديثنا السابق عن المعرفة العقلية ودرجاتها.

لقد اختلف شراح أرسطو فيما بينهم حول: هل العقل واحد بذاته أم عقلاان؟ وهل العقل بالفعل هو العقل الفعال كما قال الإسكندر الأفروديسي أقرب الشراح اليونان إليه؟

أم أن الأقرب إلى النص الأرسطي وإلى مقصوده هو دراسة العقل بوصفه ظاهرة طبيعية نفسية إنسانية كما قال ثامسطيوس من الشراح اليونان وابن رشد من الشراح العرب المسلمين.

إن تلك الانقسامات بين الشراح جاءت نتيجة لذلك النص الغامض الذي يتحدث فيه أرسطو عن مفارقة العقل بالفعل للجسم ووصفه إياه



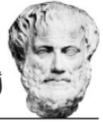
بالخلود والأزلية وفي اعتقادنا ألا حل لهذا الإشكال الذي خلفه ذلك النص واتفق فيه الشراح الوقت الكثير وكتبوا فيه مئات الصفحات لا حل إلا بفهم النص في سياق الطبيعي في كتاب النفس من ناحية ومن خلال رؤية أرسطو في نظرية المعرفة وجلال الإدراك الإنساني لطبيعة الكائنات المفارقة خاصة إذا كان ذلك متعلقاً بإدراك الإله ذاته فالعقل البشري بما هو كذلك بوجه عام لا عضو جسدي له عن أرسطو ومن ثم فهو وحده القادر بفاعليته الإدراكية المستقلة عن أي تأثير محسوس أو مادي إلى الوصول بتأملاته إلى إدراك ما ليس بمحسوس وما لا يمكن أن يخضع للمادة أو يتصل بها إن القادر على إدراك الإله.



مراجع الكتاب

الترجمات العربية

- * أرسطو: المقولات ترجمة إسحق بن حنين تحقيق عبد الرحمن بدوي في «منطق أرسطو» الجزء الأول القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية 1948 م.
- * أرسطو: العبارة ترجمة إسحق بن حنين تحقيق عبد الرحمن بدوي في «منطق أرسطو» الجزء الأول القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية 1948 م.
- * أرسطو: التحليلات الأولى ترجمة تزارى تحقيق عبد الرحمن بدوي في «منطق أرسطو» الجزء الأول القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية 1948 م.
- * أرسطو: التحليلات الثانية ترجمة أبو بشر متى بن يونس تحقيق عبد الرحمن بدوي «منطق أرسطو» الجزء الثاني القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية 1949 م.
- * أرسطو: الطوبيقا «الجدل» ترجمة أبي عثمان الدمشقي تحقيق عبد الرحمن بدوي «منطق أرسطو» الجزء الثاني والجزء الثالث القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية 1949 ، 1952 م.



- * أرسطو: الأغاليط السوفسطائية «السوفسطيقا» نقل عيسى بن اسحق بن زرعة وآخرون تحقيق عبد الرحمن بدوي في «منطق أرسطو» الجزء الثالث القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية 1952 م.
- * أرسطو: دعوة للفلسفة «بروتريتيقوس» ترجمة وتقديم عبد الغفار مكاوي صنعاء جامعة صنعاء مجلة كلية الآداب العدد الثالث 1982 م.
- * أرسطو: النفس: ترجمة أحمد فؤاد الأهواني مراجعة الأب جورج شحاتة.
- * أرسطو: كتاب «بروتريتيقوس».

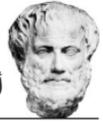


فهرس المحتويات





5	تقديم
7	الفصل الأول: أرسطو وأشهر أقواله
9	نبذة عن أرسطو
12	أشهر أقوال أرسطو
21	الفصل الثاني: أرسطو والدعوة للفلسفة والتفلسف
23	أرسطو والكتاب المفقود «بروتريتيقوس» الحث على الفلسفة
29	دعوة أرسطو للفلسفة
37	الفصل الثالث: ماذا قال أرسطو في كتابه «بروتريتيقوس»؟!
55	الفصل الرابع: أرسطو وكتاب النفس
57	أرسطو ونظرية النفس

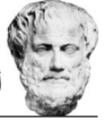


- 57 عمل الإحساس بوجه الإجمال
- 57 ما الحاسة وتشبيه الشمع والطابع؟!
- 57 القوة والعضو:
- 58 لماذا لا يحس النبات؟!
- 60 لا توجد حاسة سادسة
- 61 المحسوسات المشتركة:
- 64 الحس المشترك
- 68 المحسوسات عند أرسطو
- 71 التفكير والإدراك والتخيل
- 73 التخيل عند أرسطو:
- 77 أرسطو والعقل المنفعل
- 81 أرسطو والعقل الفعال
- 82 أفعال العقل: تعقل الأشياء المركبة والأشياء اللا منقسمة
- 85 العقل العملي عند أرسطو
- 89 أرسطو والعقل والحاسة والتخيل



أرسطو

- 91 «علوم الحياة ونظرية النفس»
- 98 تعريف النفس عند أرسطو
- 119 مراجع الكتاب
- 119 الترجمات العربية



2018/1860
978-977 - 736 - 221 - 4